استاذ المدرسة العذرية في العصر الأموي «جميل بثينة» حياته من شعره

دكتـــورة

فردوس نور على حسين

الأستاذ المساعد فى قسم الأدب والنقـــد

الحمد لله رب العالمين ، والصـــلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

تصـــــدير

أولا الصلة بين القـــديم والحـــديث وثيقـــة الأواصر ، متينـــة الوشائج ، بحيث لا يمـــكن أن تنفصم عراها ولو قـــدر للأدب ــ أو غيره ــ أن يبث السبب بين قديمـــه وحديثه فى يوم ما لكان ذلك هو اليـــوم الذى تطلع شمسه فيـــه من مغربها .

والذين خدعتهم زخـــارف العصر الحـــديث ، فعزفوا عن الأدب العربى فى عصوره الأولى ، زعما منهم أن روح الحضارة تتطلب ذلك ــ لم يفهموا الحضارة ولم يعرفوها ، بل انهم يقتلونها ويخربون بيوتها بأيديهم ، وليس معنى ذلك أننى أقول لهم اتركوا كل شىء ، ثم ارجعوا

الى الماضى السحيق ، وانما أقول لهم امزجوا بين الماضى والحاضر، وتعرفوا آثار آبائكم ، وأمجادكم وتدارسوا هذا الأثر الذى ترون فيه من علمهم ، وتاريخهم ما هو أساس القوميات ، والحضارات ... وبذلك وعليه تبنون حضارتكم الحديثة على أساس قوى يجعلكم (خير أمة أخرجت للناس)(١) .

ولقد دار بخلدى أن أضع أمام العيون والبصائر صورة واضحة المعالم لأحد شعراء العربية الفحول ، وهو جميل بن معمر ، ذلك الشاعر الاسلامى الأموى الذى أثبت فى تاريخ الاسلام صورة الأدب الانسانى العذرى الذى لم يعرف الأهواء الجامحة الشاردة ، والذى أبدع فى جانب الهوى الطاهر العفيف نائيا عن الدنس ، والخنا ، ممتلئا بروح الايمان أبرىء من كل ما يخالف مبادىء المثل العليا فهو الذى يقول :

وانى لأرضى من بثينة بالذى
لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى
وبالأمل المكذوب قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى
أواخره لا نلتقى وأوائله

ذلك هو احساس الشاعر ، المرهف الحس ، الرقيق المشاعر ، الصادق العاطفة ، فى أفق تطلع فيه شمسه على جبين السماء .

ولقد أثبت هذا الشاعر من ضروب الاجادة والاحسان ما تحار

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

فيـــه العقول ، حتى صار أمام هـــذا الفن غير منازع ، فى تلك المدرسة التى ما كان يعرف لها وجود فيما مضى قبـــله من العصور ، وهى مدرسة الغـــزل العـــذرى ، ولقد صور الحياة كما يصورها فيلسوف متـــأثر بما حـــوله من مظاهر الوجود ، ونظم وجـــده السامى فى عقود من النظم البديع تحكيها الكواكب لكنها لا تغيب ، وأعطانا صورا شـــاعرية متدفقـــة الأمواج يتخللها صـــعود ، وهبوط ، واضطراب ، وسكون ، وهو خـــلال ذلك يرفع لهـــا منارات من الأساليب العربيـــة والمعـــانى والبيان تهـــدى ســـفينة الأدب الحى للوصـــول الى مرفأ الكمـــال ، والارتقـــــاء .

فرأيت ــ بعـــد النظر والاعجاب ــ أن أزيل الأستار والحجب عن ذلك العلم الذى يلمـــع نجمـــه فى ســـماء الأدب العربى ، ويصول فى ميدانه ، ويجول بأسلوب المفكر الأديب المحب المتعالى عن الآثام .

وفى هـــذه الفصول التى أكتبها عنـــه ترسمت مبلغ تأثره بالحياة وتأثرها به ، وكيف أنه أقام وأنشأ مدرسة جديدة لم تعرفها مكتبة الأدب العربى من قبل ، ثم عرضت للحديث عن مكانته الخلقية والأدبيـــة وعلاقته برفيقة صـــباه .

وحاولت أن يكون بيانى لذلك من خـــلال شعره فالشـــعر ديوان العرب ، يعبر عن ملامح حياتهم وأطوارها ، وشـــعر الشاعر له دلالة صـــادقة على أطوار حياته ، ومكونات كل طور ، وهو مرآة تنعـــكس عليها صورته واضحة دون موارية أو زيف .

واذا كان المؤرخ أو المترجم يعتمد على ما يصله من أخبار تحتمل الصواب ، والخطأ ، فان ما سجله الشاعر عن نفسه هو عنوان صدقه ، ومن قبيل الحقائق والمسلمات .

وعلى هـذا الأساس فقـد وازنت الأحداث التاريخية فى حياة جميل ما يدل عليـه شعره من مراحل حيـاته ، وهواه مدعوما بالدليل الواقعـى .

وهـذا النحو من البحث لون من الاتجاه الجديد فى دراسـة حيـاة الشعراء ، والمؤثرات عليهـا مطبوعة بطابعهم الخاص .

وليس الأمر سهلا ميسورا حين تدرس الحياة من خـلال العمل الأدبى ، بل ذلك يقتضى الفهم الواسع ، وسبر الأغوار ، والوصول الى المكنون وراء الكلمة ، والعبارات والمعانى ، والأفكار .

وقـد كان لى تتبع لحياة الشاعر أوضحت من خـلال شـعره خطوات حياته مع رفيقـة صباه وما واجهته من مشكلات وما تغلب عليه من عقبات حتى مات .

وأفردت فصلا منها لبيان آراء مشاهير الأدباء والنقاد فيـه وفى أدبه من قدامى ومحدثين وأملى فى الله ــ جلّ وعز ــ كبير فى أن أكون قـد وفقت الى غايتى التى طلبت ، والله تعالى هو الهادى الى سواء السـبيل .

نشأة الغـزل ومدارسه الأدبيـة

(أ) الغـزل بين الجاهلية والإسلام :

فى ظلال القرن الأولّ الهجرى عاش جميلّ ، وهو عصر تغيرت فيه معالم الحياة السياسية ، من نظم وتقاليد ، فبعـد الخلافة الاسلامية تحولت الى ملك عضود يتوارثه خلفاء بنى أميـة ، وبذلك خرجت الحياة من نطاق الدين وانغمست فى حياة البذخ والنعيم تحت تأثير الحضارتين الرومية والفارسية .

واذا رجعنا قليلا الى الوراء فاننا نجد أن العرب فى جاهليتهم ، وقبل الاسلام ، وخاصة فى بلاد الحجاز ، كانوا يعيشون فى ترف وملذات هيأتهم لها ظروفهم الاقتصادية ، فقد كان العرب قديما يعتمدون على التجارة ، وكانت هى مصدر رزقهم ، نتيجة لجدب بلادهم وفقرها ، وقد كانت مدن الحجاز مهدا للتجارة ، فأثرى أهلها ثراء كبيرا فى رحلتى الشتاء والصيف ، ولا ريب أن الثراء منبع الترف واشباع الرغبات .

ولذلك نشأ فى الجاهلية ما يصح أن نسميه بالغزل الماجن الذى كان الشاعر يفحش فيه ، ولا يرعوى ، وهذا النوع من الغزل كان يتعلق بالمعانى الحسية فى المرأة كقول امرىء القيس :

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذى تمائم محول

وتلك المعانى الحسية التى يصورها زهير فى قوله :

تنازعها المها شبها ودر النحـ
ـر وشاكهت(٢) فيها الظباء
فأما ما فويق العقد منها
فمن أدماء مرتعها الخلاء
وأما المقلتان فمن مهاة
وللدر الملاحة والصفاء

---

(٢) شاكهت : شابهت .

وقول دريد بن الصمة :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه
فلما علاه قال للباطل ابعد

وكان كل همهم الوقوف على الأطلال الدارسة ، والرسوم العافية ، يبكون أحبتهم الظاعنين ، كقول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وكان الشاعر منهم لا يتخذ من الغزل غرضا مستقلا ينظم فيه قصائده ، أو كقصيدته ، وانما كان يبدأ قصيدته بالغزل ، ثم ينصرف عنه الى الغرض الأساسى ، من مدح أو فخر وما شاكل ذلك ؛ وكان هذا أشبه بشىء لازم بحيث ان كل شاعر كان يبدأ قصيدته بالغزل ولو لم يكن محبا ؛ فيستعير اسما لمحبوبة يتخيلها ، ثم يروى حديثا عن اتصاله بها على عادة المحبين ، ولقد ذكروا أن زهيرا كان عفيفا يتحرج من النسيب ، ولكنه اضطر أن ينسب فذكر اسم امرأته (أم أوفى) فى معلقته .

أما فى عصر صدر الاسلام فان الشعراء قد زهدوا فى هذا الغرض من الشعر ، اذ أن الاسلام قد حثهم على الفضائل ، ومنها العفة ، وعدم الفحش ، فكان للدين أثره ووازعه الذى حد من سلطان الشعر ، وسوءاته التى كانت سائدة فى الجاهلية ، وكان انصراف الناس عن ذلك أيضا لأن هذا العهد الجديد قامت فيه حروب كثيرة بين المسلمين والكفار ، وقد بلغ الدين أوج العظمة فى زمن النبى ﷺ ، والخلفاء الراشدين من بعده ، وبذلك عزف الناس عن اللهو والمجون ، والعبث .

(ب) مدارس الغزل فى العصر الأموى :

ولما انتقلت الخلافة الى الأمويين حولوها ــ كما ذكرنا ــ عن مجراها الطبيعى ، وجعلوها وراثية بينهم،ولخوفهم على ملكهم ومنازعة غيرهم لهم أغدقوا الأموال ، والهبات ، والمنح على كثير من الناس حفاظا على ملكهم ، فكان ذلك سببا لانتشار الخلاعة ، والمجون ، زد على ذلك أن الوازع الدينى فى نفوس الناس قد ضعف ، لأن القيم الدينية والخلقية قد رفعت قيودها ، فاتسع المجال للهو والفسوق وعادت الحجاز الى سيرتها الأولى ؛ وهذه الحياة لابد أن تؤثر فى المجتمع كله ، وقد أثار بنو أمية العصبيات ، لشغل الناس عن شئون الحكم ، وأفرطوا فى الأموال التى كانوا يبذرونها هنا وهناك ، فنشأ مجتمع لا يجد متجرا الا فى ميادين الهوى والشهوات •

وقد كان اندفاع بعض أعلام العرب الى هذا الميدان دليلا شاهدا على صدق ما نقول ومن ذلك أن مصعب بن الزبير على ما يعرف له من مكانة دينية واجتماعية سمع بيتين من الشعر لجميل قالهما فى بثينة :

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت
بالحجر يوم جلبتها أم منظور
ولا انسلابتها خرسا جبائرها
الى من ساقط الأوراق مستور (٣)

---

(٣) أم منظور هى امرأة عجوز كانت ابان شبابها ما شغلة تقوم بجلوة النساء ، ومشط شعرهن واظهار زينتهن • وحدث ذات ليلة أن جلت أم منظور بثينة وألبستها قلادة ، ومشطت شعرها • ووضعت لها الطيب، =

وسمع ما كان من جميل فى ذلك ، حينئذ ود لو يعرف كيف جلتها، فسأل عن أم منظور هـذه فأخبر بأنها حيـة قبعث اليهـا ، فحضرت عنـده ثم وصفت له ما أراد ، فقال لها : أقسم عليك الا جلوت عائشة بنت طلحـة مثل ما جلوت بثينة ، وركب مصعب ناقته وأتى ثم نظر بمؤخرة عينه ، كما فعل جميل حينما كان ينظر الى بثينة يوم أن جلتها أم منظور •

واذا كان هـذا شأن علم من أعلام المسلمين فلا غرو أن يخوض غيره فى بحـار الملـذات ، وأحاديث السمر ومنادمة الحسان ، وثغور الكئوس بين الولدان ، كان هـذا هو شأن المدن المتحضرة •

أما البادية فقد تأثرت ــ أيضا ــ بهذه التيارات الجارفة ، وكانت لا تقل شأنا عن الحضر فى ذلك وفى أمر الغـزل بخاصـة لأنه اللذة الوحيدة التى تعوض البـدو عما فى الحضر من مغريات ، ومفـاتن ، والغزل أنشودة البدوى التى يتغنى بها ، حيث مناظر الطبيعة الآسرة التى تحرك فى نفسه آمالا تنتقل بين الأغصان والأنهار ، وينعم فى ظـلال الأحـاديث الشـاجية التى تدور بين المحبين ، وما يكون من علاقات الوصل والحرم واللقاء والخفاء ، وما الى ذلك •

=

وأظهرتها فى أبهى زينتها،وكان جميل يحاول أن يراها وأم منظور لاتسمح له بذلك ، وبعد الحاح منه سمحت له أم منظـور أن يقف بعيدا عن بيتها راكبا ناقته وتخرج بثينة من خيمتها ، فينظر اليها بمؤخر عينه • ففعل وعندما خرجت منسلة من خيمتها فى خفية من الرقباء نظر كل منهما الى الآخر ، وأنشد جميل هذين البيتين • انظر الاغانى ط • دار الكتب ج ٨ ص ١١٢ ، ١١٣ •

والبادية تخضع لعوامل الرخاء ، وعدمه فاذا ما تحسنت حالتها الاقتصادية خفت فيها حدة القتال والمنازعات لأنها غالبا ما تكون من أجل القوت ، وتميل الى الوداعة والسلام ، وأحيانا تجاور البادية فى بعض أطرافها الحضر فتتخلق بأخلاقه ، وترق لمظاهره وسماته .

وهذا ما حدث فعلا فى المجتمع الذى عاش فيه جميل فقد كانت قبيلته تتقلب فى أعطاف النعيم على حين كان أهل بثينة ذوى ثروة ضئيلة وكانوا جميعا يتصلون بالحواضر ويحاولون أن يجاروا كلّ ما فيها ، ويتباعدوا عما ركب فيهم من طبيعة الأعراب .

ومن هنا اتسع ميدان الغزل ، وشاع وتشكل بظاهرتين مختلفتين ، ففريق كان اباحيا يجعل من النساء جميعا بستانا ، يقطف ما يشاء ، ويختار ، ثم لا يلبث أن يترك هذه ليقطف تلك ، وهكذا ، وعلى رأس هذا الفريق عمر بن أبى ربيعة .

وفريقا آخر كان على النقيض من ذلك فقصر حياته على امرأة واحدة ، وهبها حياته ، واحساسه ، ومشاعره فعاش ومات من أجلها وعلى رأس هذا الفريق جميل بن معمر العذرى .

وهناك فريق ثالث بقى على ما كان عليه الحال فى الصور القديمة السالفة ، وكان غزلهم مجرد صناعة لفظية ، فيبدأ قصيدته بالغزل كما بدأ ذلك السابقون وان لم تكن له محبوبة ، ولم يكن لحبه وجود ، ثم يخلص منه الى أى غرض آخر من أغراض الشعر المختلفة .

ومن هنا تكونت مدرستان أساسيتان من الغزل فى العصر الأموى هما :

١ ــ مدرسة الغزل القصصى وأستاذها عمر بن أبى ربيعة .

٢ ــ مدرسة الغزل العذرى وأستاذها جميل بن معمر العذرى .

(ج) موازنة بين مدرستى العذريين والاباحيين :

الغزل القصصى ــ كما هو معروف ــ ينزل الى روضات النساء فيختار منها زهرات يتنسم صباها ، ثم يتركها ويذهب الى سواها ، وهكذا ، فمظهره أنه الى اللهو أقرب منــه الى الغزل ، فان الموصوفة فيــه انما هى عروس من عرائس الشعر ، يصف منها الشاعر الظاهر ، والباطن ، والخلوة بها ، والحديث معها بل ربما يتمادى الشاعر فى غوايته ، فيجعل محبوبته عاشقة ، فهى التى ترسل اليــه لا أنه هــو الذى يرسل اليها ، وان كان ذلك فى ســنة الأقدمين ليس بمقبول ، والشاعر الاباحى لا يهتم الا بمفاتن المرأة ، وما يحس منها ، فذلك هو امام المدرسة عمر بن أبى ربيعة يقول :

ثــم قالت وســامحت بعــد منــع
وأرتنى كفــا تزين الســــوارا
فنــــاولتها فمــــالت كغصــن
حــــركته الريــاح فمــــــارا
وأذاقــت بعــد العــلاج لذيــذا
كجنى النحل شــاب صرفا عقارا الخ

مع أنه يعلم أن فى اذاعة هــذا الأمر حرمانا أبديا له ، لأن من عادة العرب ألا تزوج الفتاة ان يشبب بهــا ، وحياة هــذا الشــاعر الغزل العذرى فانه لا يعرف الا امرأة واحدة ، يقصر الشاعر حياته على تعلقه بها ، وهو يكتم أمره ويخفيه ، فلا يستطيع ذلك :

وهكذا نراه متحللا من كل خلق ، منغمسا فى الفسوق والآثام • أما

نم دمعى فليس يكتم شــيئا ورأيت اللســان ذا كتمان

حياة الشكوى والألم المبرح وفى شعره ينفث حرارة الشوق والشجن ، مخاطبا الوحوش ، والظباء لما يرى فيها من مشابه لمن يحبها .

ومن مظاهر هذا اللون من الشعر : الهوى الصادق ، وحرارة الوجدان ، وعفة اللسان ، والهيام ، وأمنيات اللقاء فى شغف ، والخوف من الوشاة وعيون الرقباء ، وهو شعر يمتلىء بالحنين الشديد التأثير ، وتتضاءل فى هذا الغزل العفيف المتع الجسدية ، اذ يطغى عليها حرص المحب على استدامة عاطفته فى ذاتها ، وقد يستعذب الحرمان فى سبيل حبه ، فهو نوع من الحب ينم عن سمو أدبى ، ونبل روحى ، حيث يتجاوز الغريزة المادية الى عالم المعنويات ، ولذلك فانه يدوم على الرغم من الحرمان ، ففيه صدق عاطفة ، وصدق عقيدة ، ولذلك فلم يوجد بخصائصه تلك الا فى المجتمع الذى تمكنت فيه العقيدة الاسلامية .

ولذلك فقد غلب هذا النوع من الغزل على الفقهاء ، وشعراء البداوة ، من أمثال هؤلاء « أبو ذر الغفارى » ، وسالم وسلمان الفارسى وقد أثر عن « عبد الرحمن بن عمار » الشهير بالقس ، وقد هام بسلامة المغنية ، قالت له يوما : أنا أحبك . قال : والله أنا أحبك . قالت فما يمنعك ؟ فوالله ان الموضع لخال . قال : انى سمعت الله عز وجل يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين »(٤) وأنا أكره أن تكون خلة ما بينى وبينك تئول الى عداوة »(٥) .

والشعر الغزلى بمدارسه السابقة واتساعه هذا لم يظهر الا على

---

(٤) الزخرف الآية ٦٧ .

(٥) الاغانى ج ١ ص ٣٣٥ ط. دار الكتب .

مسرح العصر الأموى ، والسياسة الأموية ، وذلك هـو الرأى الذى أشار اليـه الباحثون فى كتاباتهم المختلفـة فيقرره مثلا الأسـتاذ جورجى زيدان حيث يقول : « ان التشبيب على ما هو عليـه الآن نشأ فى العصر الأموى »(٦) .

وهذه أمثلة الشعر العذرى العفيف حتى يمكن الموازنة ، يقول مجنـون ليـلى :

يقـر بعينى قربهـا ويزيـدنى
بهـا شغفا من كان عنـدى يعيبهـا

وكم قائـل قـد قال تب فعصـيته
وتلك لعمرى تـوبة لا أتوبهـا

فيـا نفس صـبرا لمت والله فاعلما
بأول نفس غاب عنهـا حبيبهـا

ويقول قيس بن ذريح فى لبنى :

فان يحجبوها أو يحل دون وصـلها
مقـالة واش أو وعيـد أميـر

فلن يحجبوا عينى من دائـم البـكا
ولن يذهبوا ما قـد يجن ضـميرى

الى الله أشكو ما ألاقى من الهوى
ومن كرب تعتـادنى وزفـير

هذه سمات كل من المدرستين من حيث الاتجاه الخلقى ، ولاشك أن الأول مجون وعسوق ، والثانى أدب صاف ، وهوى غلاب وطهر ونقـاء .

---

(٦) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٧٠ طبعة ١٩٥٧ .

وذلك مثل رائع عجيب من شعر أستاذ تلك المرسة جميل يقول :

وأنت التى ان شئت كدرت عيشتى
وان شئت بعد الله أنعمت باليـــا
وأنت التى ما من صـــديق ولا عدا
يرى نضو ما أبقيت الا رثى ليـــا

وهـــذه المعانى التى ينم عنها هـــذا الشـــعر القوى وتقوم على الصدق فى العاطفة والشعور العميق وتبدو فيها سيما الأخلاق المستكينة للمحبوبة ذات الدلال والتيـــه •

وهـــذه أبيات أخرى لأحـــد الفقهاء عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود الشهير بعبيد الله بن مسعود وهو أحـــد الفقهاء الســـبعة بالمدينة من أعلام التابعين المتوفى ســـنة ١٠٢هـ يقول :

شققت القلب ثم ذررت فيه هواك فليـــم فالتأم الفتور
تغلغل حب عثمة فى فؤادى فباديه مع الخافى يســـير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ ســـرور

وقيل الأول والثالث ينسبان الى قيس بن ذريح(٧) •

وهكذا نرى المدرستين على النقيض من حيث السلوك الانسانى ، أما من حيث البيان واللغة والأدب فكلاهما ندان يسجلان براعة الأدب

---

(٧) الاغانى ج ٨ ص ١١٧ ووفيات الاعيان لابن خلكان ص ٣٦٣ من طبعة فوتنجين أو ٣٢٩ من الطبعات المصرية ، وانظر كتاب تاريخ الآداب العربية ـ كارلونا لينواط ١٩٥٤ ص ١٢٠ •

العربى فى تاريخ الآداب اللغوية الرائعة ، واذا كان الأدب العـــذرى بخاصة يشيد به الناس ويعتبرونه فى الذروة والسنام أدبا ومزايا ، فان ذلك كله يدين بالفضل لأستاذ هـذه المدرسة التى هى بحق وليـــدة عصره ، ولم يكن لها وجود فى العصور الأولى ذلكم هو الشاعر الرقيق « جميل بثينة » واذلك فاننا ننتقل الى هـذا الشاعر ونسير معه فنعرف كيف كان والى أى مدى حقق خصائص تلك المدرسة النبيلة من خـلال شـــعره .

صـورة الشاعر فى شـعره

(أ) نشـأته وأخـلاقه :

هو جميل بن عبد الله بن معمر بن صباح ، وينتهى نسبه الى عذرة ، وهى قبيلة كانت تسكن شـمال الحجاز بجـوار غطفان ، ومن أماكن مسكنهم (وادى القرى) وتبوك ، وهى قبيلة اشتهرت برقة الاحساس والشعور الصادق فى العشق فكانوا يموتون وجـدا ، ويروى أنـــه قيل لأعرابى منهم(٨) :

(ما بال قلوبكم كأنها قلوب طـير تتمات كمـا يتمات الملح فى الطعام . أما تتجلدون ؟ فقال : انما ننظر الى محاجر أعين لا تنظرون اليها ، وقيل لآخـر : مم أنت ؟ فقال : أنا من قوم اذا أحبوا ماتوا ، فقالت جارية سمعته : هـذا عذرى ورب الكعبة وتذكرت قول العذرى :

نظـر العيون الى العيون هو الذى
جعل الهـلاك الى الفـؤاد سـبيلا

---

(٨) وفيات الاعيان ج ٣ ط الحلبى ص ٢٦٨ .

ما زالت اللحظات تغـزو قلبـــه
حتى تشـحط بينهن قتيـــلا

وجميل كما هو مقرر مقدم على سائر الشعراء العذريين ، ويلتقى نسبه مع محبوبته بثينـة عنـد جـدهما « حسن بن ربيعـة » ، ثم يختلفـان على ما بينهما من تقارب النسب ، فكان أهله موسرين ذوى فضل ومنعة ، وكان قومها أقل شأنا من قومه ، من حيث قوة العشيرة ، وأحوالها ، ولذلك روى فى أخباره أنهم كانوا يردون جميلا عن بثينـة مرات عديدة ، حتى بعـد أن أهـدر السلطان دمه ، ومع ذلك لم يجترىء أحـد على قتله ، بل كانوا يشكونه الى أبيه ، وأهله ، وكان جميل يكنى أبا عمر ، وكان يتصف بالسمت ، وروعة المظهر وكان(٩) (طـويلا ، عريض المنكبين ، حسن الصورة ، لطيف العشرة ، سليم الذوق ، حلو النادرة ، وكان صادق الصبابة لا تهتف نفسه الى منكر) ولكنـه كان ذا خيـلاء ، وتيـه ، لنشأته فى عزة ومنعة ، ومن خيلائه أن عمر بن أبى ربيعـة والأحوص ، ونصيبا اجتمعوا فى مكان ثم أرسلوا اليـه راويته يدعونه اليهم ، ولكنـه تاه بنفسه ، وسأل صاحبه متبرما : أما كان عنـدك من المعرفة بى ما كان يردعك عن اتيانى بمثل هذا ؟ قل لابن أبى ربيعـة ان كنت قرشـيا فانى قرشى ، وان كنت شاعرا فأنا أشعر منك ، قال راويته : هـذا اذا كان الحـكم اليك فقال : والى من هو ؟ ومن أولى به منى ؟ ثم رجع الرسول اليهم وأخبرهم بما سـمع منـه ، فضحكوا ، ثم نهضوا معه ، فدخلوا عليـه فى خيمته فوجدوه جالسا على جلد كبش عما أوسع لهم من مجلسه .

---

(٩) دائرة المعارف ج ١٤ ص ٥٣٥ المجلد السادس .

وكان شجاعا مقداما ، وقد مثل دوره فى الحياة بشجاعة ما عهدنا مثلها عند ابن أبى ربيعة ، ولقد كان يغشى حى بثينة غير هياب ولا وجل وهو القائل :

فليت رجالا فيك قد نذروا دمى
وهموا بقتلى يا بثين لقونى

ومع أنه كان حسن العشرة فقد كانت عنده بعض نزعات ، وخلائق جامحة لا تنقاد ، فقد ذكر صاحب له من آهل تيماء أنه كان معه يحدثه ويستمع اليه (اذا ثار وتربد وجهه ، ووثب نافرا مقشعرا متغير الوجه) .

هذا . وقد بلغ من حبه بثينة أن اشتهر أمره فسمى جميل بثينة .

وقد ولد فى الحجاز فى وادى القرى فى أواخر النصف الأول من القرن الأول الهجرى باجماع المؤرخين ، وقد خلف اثره ثروة كبيرة كانت ــ ولا تزال ــ ذخيرة للأدب العربى وكانت وفاته فى مصر بعد ترك هذا الأثر المحمود سنة ٨٢هـ (٧٠١م)(١٠) .

(ب) رفيقة صباه بثينة :

أما بثينة حبيبته فقد كانت فتاة ذات قوام ممشوق ، وملامح تفتن من يراها ، ويستفاد مما ذكره راويته كثير عزة من الاشارات التى كان جميل يفعلها بالنسبة لها وسرعتها فى الاجابة ، وحسن تصرفها .

---

(١٠) دائرة معارف القرن الرابع عشر ــ العشرين ــ ط ١٣٤٢هـ ــ ١٩٢٣م ص ١٦٧ .

أنها كانت على جانب كبير من الذكاء الذى تحتاج اليـه الفتاة فى مثل هـذه المواقف •

وقد كانت منأبيـة يتملكها الدل والتيـه الذى يخـالطه الجـفاء البدوى ، ولذلك لمـا تصدى لها عمر بن أبى ربيعة قالت له : (واللـه يا عمر لا أكون من نسائك اللاتى يزعمن أن قـد فتنهن الوجد بك) وقال جميل :

ولست على ذل الصفاء هويتهـا
ولكن سـبتنى بالدلال وبالبخل

ووصفها أيضا بقوله :

● لطيفة طى الكشح ذات شوى خدل ●

وقال يصف ثغرها :

مفلجـة الأنيـاب لو أن ريقهـا
يداوى به الموتى لقـاموا من القبـر

فكانت حسناء بدوية ، ولكنها كانت تأخذ من الحضارة ، كما تأخذ من البداوة بطرف ، وقد عرف عن أخلاقها أنها كانت تختلط بشىء من الحمق ، ولذلك لمـا دخلت على عبد المـلك بن مروان فانه وجد امرأة حمقاء فقال لها : ما الذى أحب جميل فيـك ؟ فقـالت له : الذى رآه الناس فيك حتى ولوك الخلافة •

ولم تتزوج من حبيبها جميل لأن العرب كانت تأبى أن تزوج ابنتها لمن شبب بها ، والأمر عجيب فى ذلك حيث ان جميلا شبب بهـا مـع علمه بذلك فقـد أوقع نفسه فى الحرمان بيده •

وقد تزوجت من رجل يسمى (نبيها) وكان دميم الخلقة لا يذب عن الحريم ، لضعفه ، وعجزه ، وعدم غيرته ، وكبر سنه . وقد ساعدت هذه الأسباب على بقاء الصلة بين جميل وبثينة حتى الوفاة وفى ذلك يقول :

لقد أنكحوا جهلا نبيها ظعينة ... الخ

وكان زوجها أعور ليس له هيبة ولا أنفه ، وقد كان يعلم بصلة جميل بها ، وكان غاية جهده أن يشكوه الى أهلها .

والمعروف عن جميل أنه لم يتزوج الى آن مات ، ولا غرابة فى ذلك لأن أمره بيده ، أما أمرها هى فلم يكن بيدها .

ولم يعرف عنها من الشعر سوى بيتين قالتهما فى جميل هما :

وان سلوى عن جميل لساعة
من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر
اذا مت بأساء الحياة ولينها

(ج) بيئة الشاعر وبواعث الغزل فى نفسه :

عرفنا فيما مضى أن جميلا نشأ فى العصر الأموى ، والأمويون — كما هو معلوم مما سبق — قد أثاروا العصبيات وأغدقوا الأموال ليصرفوا الناس عن شئون الخلافة ، ولا ريب أن الانسان بطباعه وأخلاقه وليد البيئة التى تربى فى أحضانها ، وقد قلنا : ان البادية قد اتصلت بالحضر وتسرب اليها بعض ألوان الترف واللهو ، وجميل أحد أولئك الذين عاشوا فى البادية ، ولكنه كان فى حالة يسار

النقاد يرون أن كلام جميل يدل على خلاف ذلك ، فقد اضطرب كلامه في اظهار حاله التى كان عليها بالنسبة لحبيبته ، فأحيانا تكفيه النظرة والكلمة والصلة الروحية الصافية ، كقوله :

وانى لأرضى من بثينــة بالذى(١٣) الخ

ويبدو عليــه تسامى العاطفة الطاهرة اذ يقول :

لا • والذى تســجد الجبــاه لــه
مالى بما دون ثوبهــا خبــر
ولا بفيهــا ولا هممــت بــه
ما كان الا الحــديث والنظــر

وقال يصف ليــلة :

خليــلان لم يقــربا ريبــة
ولم يســتخفا الى منــكر

وحدث عباس بن سهل الساعدى قال : دخلنا على جميل وهــو يحتضر فنظر الى وقال : يا ابن ســهل ما تقول فى رجــل لم يشرب الخمر ، ولم يزن ، ولم يقتل النفس ولم يسرق ، وهو يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ؟ قلت : أظنه قد نجــا • فمن هــذا الرجل ؟ قال : أنا • قلت : ما أحسبك سلمت وأنت تشبب ببثينة منــذ عشرين ســنة • قال : لا نالتنى شفاعة محــمد ان كنت وضعت يدى

(١٣) انظر الابيات فيما سبق من البحث •

عليهـا لريبة وأكثر ما كان منى أن آسند يدها الى فؤادى أستريح ساعة(١٢) .

ويذكر الرواة فى شكل اجتماعهما روايات كثيرة(١٤) نذكر منها مثلا (كان اذا أقبل عليها حتى اذا كان غير بعيد تقول له : اجلس ، فكأنه لصق بالأرض ، ثم يسلم عليها ، ويسألها عن حالها أكرم سؤال ، وأبعده عن ريبة ، وتسأله هى مثل مسألته ، ثم تقرب اليه جاريتها الطعام فيأكل ، ثم تستنشده ما قال فيها ، فينشده ، ولا يزالان يتحدثان ما يقولان فحشا ، ولا هجرا ، حتى اذا قاربا الصبح ودع كل واحد منهما صاحبه أحسن وداع ، ثم انصرفا ، وكل منهما يمشى خطوة ، ثم يلتفت الى صاحبه حتى يغيبا) .

وذلك كله يشعر بأن اللقاء والفراق بينهما كان يتم فى أنبل عاطفة وأطهر حال الى آخر خيط من خيوط حياتهما .

الا أن هناك نوعا آخر من شعره ينقض ذلك ويصرح بل يؤكد أنه كان يبيت عند بثينة فى بعض الليالى ويضاجعها ، وفى بعض أشعاره ما يدل على عناقها وتقبيلها وما شاكل ذلك .

استمع اليه يقول :

تجود علينا بالحديث وتارة
تجود علينا بالرضاب من الثغر

---

(١٣) دائرة المعارف ج ١٤ المجلد السادس ص ٥٣٦ وديوان جميل المطلبة الوطنية ١٩٣٤ ص ٥ ، ٦ .

(١٤) المصدر السابق .

ويقـــول :

كأنا فتيت المسكَ خـــالط نشرها
تقـــلّ بـــه أردانهـــا والمرافـــق
تقـــوم اذا قامت به من فراشـــها
ويغدو به من حضنها من يعـــانق

ويقـــول :

حلفت يمينـــا يا بثينـــة صـــادقا
فان كنـــت فيهـــا كاذبا فعميتا
اذا كان جـــلد غـــير جلدك مســـنى
وباشرنى دون الشـــعار شريت

وهـــذان البيتان الأخيران قالهما لها حينما وجهت اليـــه التهمـــة باتصـــاله بغيرها ، وقد كان هو يشك فى سلوكها ، ويتهمها بالاتصـــال بغيره ، فنحن نسمعه يقولُ :

تظلّ وراء الســـتر ترنـــو بلحظهـــا
اذا مـــر من أترابهـــا من يروقهـــا

وحدث حين سافر الى الشام أنها اتصلت بحجبة الهـــلالى ، ثم طلب منها حجبة أن تصـــارح جميـــلا بأنها قـــد تركته ، فقـــــالت أو قيلَ على لســـانها :

ألم تر أن المـــــاء غير بعـــدكم وأن شـــعاب القلب بعـــدك حلت

فأجابها قـــائلا :

فان تك حلت فالشعاب كثـــيرة وقـــد نهلت منهـــا قلوصى وعلت

ويروى أنه كان لها ابن عم ، وكان جميل يخشى منه ، ويرتاب ، وحـــدث أن اجتمعت هى وابن عمها هـــذا فى بيت ، فأقبل جميل ، وجعل كل منهما ينظر لصاحبه فقال :

لقـــد خفت أن يغتالنى الموت بغتـــة
وفى النفس حاجات اليك كما هيا
وانى لتثنينى الحفيظـــــة كلمـــا
لقيتك يوما أن أبثـــك ما بيـــا
ألم تعلمى يا عـــذبة الريق أننى
أظل اذا لم أشق ريقك صـــاديا

وذلك كله يؤكد أن الأمر لم يكن يسلم من الناحيـــة الشـــهوية الجسدية وكان كما نراه مصحوبا بالريب ، والاتهام بالخـــيانة ، فذلك يجعل الأمر فى حيرة ويبعث فى النفس تساؤلا ... ! ماذا كان شـــأن جميل ؟ أكان شاعرا عذريا أم لا ... ؟

والواقع أنه فعلا كان شاعرا عذريا لأنه لم يخرجا عن كونهما انسانين لعبت بهما عواصف الهوى ، الا أنهما كبحا من جماحهما واعتدلا فى ميزان الأخلاق ، وللأكثر حـــكم الكل كما قيل ، وليست العصـــمة الا للرسل عليهم الصلاة والسلام .

وقد مال الأســـتاذ العقاد الى هـــذا الرأى ، فقال : « انهمـــا انسانان كسائر الناس لا نحـــكم على عمل من أعمالهما بالمناقضة الا اذا ناقض الطبيعة البشرية ، وكذلك ما تواتر من أخبار الناس ، وحيث ان عملهما جار على الطبيعة ، فلا تناقض ، وكونهما بدويين لا يمنع من طهارتهما ، وعفافهما ، فقد كان لقبيلة بنى عذرة من المنعة والقـــوة ، بحـــكم السيطرة المخولة لها ما يدعوها الى التمسك بالقيـــم الأخلاقية

السامية ، وقـد كانت تتصل بالاسلام ، وتعرف حدود الله فيـه ، فكل ذلك يدعوها الى الحفظ ، وعدم الفحش »(٣٥) .

وقد علق الأستاذ « بشير يموت » الذى جمع ديوانه على ما رواه عباس بن سهل الساعدى عن جميل حين احتضاره فقال « ان ذلك فيه شك كثير يدركه من يقرأ شعره بتدبر وامعان ويوازن بين أقـوالـه وأعمـاله »(١٦) .

وهـذا التعليق من جـامع الديوان يوحى بوقـوع الفحش فى شعره الذى يؤكد عبثه فى حيـاته والرأى فعـلا أنه ليس بمعصوم ، ولكن ذلك كان منـه نادرا اذ هو بشر ، ولكن أخلاقه ، وما يؤثر عنـه يجعل منـه شاعرا عف اللسان ، وكان حبـه عذريا روحيا كما يؤكد ذلك كثير من النقـاد ، والأدباء ، والمؤرخين أمثال الأسـتاذ العقاد ، وما نقلنـاه عن (دائرة المعارف)(١٧) .

من أنه « كان صادق الصبابة والعشق لا تهتف نفسه الى منكر » وقد قرر ذلك أيضا الأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى فى كتابه « الحب العذرى » ففى اثنـاء حديثه عن خصائص الحب العذرى بعـد ما ذكر جميـلا وأخباره . يقول : (ان عنصر الشهوة فى الحب العـذرى لا يكاد يبين ، والاختفاء بالجسد ضئيل لا يكاد يذكر ، وقد مر بنا من الأشعار ما يؤكد ذلك على أن للصفات النفسية فى هـذا الحب المقام الأول »(١٨) .

---

(١٥) جميل بثينة للعقاد طبع ١٩٤٤ بتصرف .

(١٦) ديوان جميل بثينة طبع ١٩٣٤ المطبعة الوطنية ص ٥ ، ٦ .

(١٧) ج ١٤ المجلد السادس ص ٣٥ .

(١٨) الحب العذرى طبع دار الكتاب العربى ١٩٤٧ ص ٨١ .

وعلى ذلك فلا مجال للشك فى أن حبه كان عفيفا ينبعث عن معان روحيـــة صافية لا تعرف المـــادة ولا تتصل بها ، اللهم الا فى قليل من الأحـــوال النادرة الشاذة التى قـــد تعترى صلته برفيقة هواه ولا حجة النقاد عليه بها ما دامت للصفات النفسية والمعنوية فى حياته وصـــلاته المراكز الأولى فلا بدع أن يكون امام الحب العذرى الطاهر ، والعاطفة البيضـــاء .

صـــور من حيـــاة جميل وبثينـــة

(أ) بثينـــة أمله الوحيـــد :

أرأيتم كيف تطلع الشمس وتغيب ؟ أم كيف يبزغ البدر ويأفل أم كيف تسكن الرياح ثم تعصف ؟ أم كيف يأمن الانسان ويستقر ثم يصيبه الذعر ويضطرب ؟؟ تلك كانت حيـــاة هـــذا الشاعر الذى أحب وأخلص فى هواه ، فكانت الحياة تتقلب به بين الآونة والأخرى ، مرة تثور ، وتارة تهـــدأ ، وثالثة تعصف ... ! ولا غرو فهكـــذا الهوى المضنى والحب العميق ... !

لقـــد أحب جميل بثينة ، فنزلت من نفسه منزلة الروح من الجسد، وملأت سمعه وبصره ، وملكت عليـــه عقله ، وحسه ، وهام بها هياما تسرى فيـــه الصبابة سريان المـــاء فى العود ، فكانت أمله الوحيـــد الذى يبعث فيـــه الروح ، ويضفى على حياته من ألوان الســـــعادة (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) .

يقولـــون مهـــلا يا جميل وانني
لأقسم ما بى عن بثينـــة من مهل
أحلما فقبـــل اليـــوم كان أوانه
أم أخشى فقبل اليوم أوعدت بالقتل

ويقـــول :

انى اليـــك بمـــــا وعـــدت لنـــاظر
نظـــر الفقير الى الغنى المـــكثر
بعـــد الديون وليس ينجز موعـــدا
هـــذا الغـــنى لنـــــا وليس بمعسر

وقد قصر جميل نفسه عليها ، فلم يجعل لغيرها سبيلا الى قلبه ، وعاش متعلقا بهـــا وحدها ، متخذا منها صورة آماله العـــذاب ، حتى مات على ذلك الحب الصافى المتغلغل فيما تحت السرائر والوجدان .

وقد ورد فى أخباره ما يدل على ولعـــه بها وعدم اشراك غيرها معها ، فمن ذلك ما يروى أن جميلا نزل فى بيت شيخ من عشيرته فأراد هـــذا أن يغرى بناته به ، لعـــله يصبو الى احداهن فينسى بثينـــة ، ويذهب ما به من حبها ، ففعلن فما وجدن فيـــه ثنيـــة يطلعن الى نفسه منها ، حتى يئس منـــه(١٩) .

وهو يقول فى ذلك :

حلفت لكيما تعلمونى صـــــادقا
وللصدق خـــير فى الأمور وأنجح
لتكليم يوم واحـــــد من بثينـــــة
ألـــذ من الدنيـــا لـــدى وأمـــــاح
من الدهـــر لـــو أخـــلو بكن وانمـــا
أعـــالج قلبـــا طامحـــا حيث يطمح

---

(١٩) تزيين الاسواق ج ١ ص ٢٩ .

ويقـــول :

فلرب عارضة علينا وصلها بالجد تخلطه بقول الهـــازل
فأجبتها بالقول بعد تستر حبى بثينة عن وصالك شاغلى

وقـــال :

ويحسب نســـوان من الجـــهل أننى
اذا جئته ايـــاهن كنت أريـــد
فأقسم طرفى بينهن فيســـتوى
وفى الصـــدر بون بينهن بعيـــــد

وقد جعل بثينة غايته من حياته ، لا يطلب سواها ، يقول :

رفعت عن الدنيـــا المنى غـــير ودها
فلا أســـأل الدنيـــا ولا أســـتزيدها

وكذلك استمر جميل على هـــذا الحب المتمكن فى سرائر نفسه ، ونظم فى ذلك أشعاره التى توحى الى كل نفس بهذه العاطفة القـــوية المشبوبة .

(ب) الشاعر والحب العذرى :

لقـــد تعلق جميل ببثينة ، وصافاها الود ، والمعروف عنـــه أنه أحبها منـــذ أن كان غلاما والى ذلك يشير بقوله :

علقت الهوى منها وليـــدا فلم يـــزل
الى اليـــوم ينمى حبهـــا ويزيـــــد

ويذكر الرواة فى كيفية علاقته بها وكيف نشأت المودة بينهما فيقولون : انه كان يرعى ابلا ، وقد حدث يوما أنه كان بوادى بغيض فنزل الابل واضطجع ، وأهل بثينة بذيل الوادى ، ثم أقبلت بثينة ، وجارية تردان الماء ، فمرتا على فصال له بروك ، فنفرتهن بثينة ، فسبها جميل ، وكان ذلك بدء اتصاله بها يشير الى ذلك قوله :

وأول ما قاد المودة بيننا
بوادى بغيض يا بثين سباب
فقلت لها قولا فجاءت بمثله
لكل كلام يا بثين جواب

وقيل : انها خرجت فى يوم عيد مع أتراب لها ، وقد تزين ، فراقته بثينة وأعجبته عندما رآها وسطهن ، وقد علتهن جمالا وبهاء وقال فى ذلك :

عجل الفراق وليته لم يعجل
وجرت بوادر دمعك المتهال
لن تستطيع الى بثينة رجعة
بعد التفرق دون عام مقبل(٢٠)

وبعض الباحثين يمزج بين السببين ، ويداخل بينهما فيجعل منهما سببا واحدا حدث على مرحلتين ، فيذكر أن جميلا عندما رأى بثينة ، وهو يرعى الابل ثم تسابا ملح لديه سبابها ، واتصلت بقلبه أسبابها ، فكان ذلك عاملا كبيرا فى ألفه لها ، وتردده على حبها فكان يلقاها

---

(٢٠) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٥٢٦ والاغانى ج ٨ ص ٩٨

وتلقـــاه ، ويتحدثان ويتناجيان ، تألفها وألفتـــه ، ولا يعلم أحد بذلك حتى خرج جميل فى يوم عيـــد ورأى بثينـــة وأختها أم الحسين فى نساء من بنى الأحب ، فرأى منهن منظرا ، وأعجبته فخلبه جمال بثينة وآســـرته(٢١) .

ويذكر الرواة أنه كان قبل اتصاله ببثينة يحب أم الحسين أختها ويشبب بها ، ويدل لذلك حديثه فى شعره حينما علمت بثينة أنه يشبب وينسب بها ، فحلفت بالله لا يأتيها على خـــلاء الا خرجت معـــــه ، فكان يأتيها على غفـــلة من الرقبـــاء حتى نمى الى رجـــالها ـــ وكانوا أصلافا غيرا ـــ فرصدوه بجماعة نحو بضعة عشر رجلا ، وجـــاء على الصهباء فاقتـــه حتى وقف على بثينة وأم الحسين ، وهما يحـــدثانه وهو ينشدهما :

حلفـــت برب الراقصـــات الى منى
هوى القطا يجترن بطن دفـــين
لقـــد ظن هـــذا القلب أن ليس لاقيا
سليمى ولا أم الحسين لحـــين
فليت رجـــالا فيك قـــد نذروا دمى
وهموا بقتـــلى يا بثين لقونى(٢٢)

ولم يكن يرى بثينة ، حتى صارت شابة ، فأخذ ينظم القصـــائد فيهـــا حتى اشتهر أمره(٢٣) .

---

(٢١) الحب العذرى ص ٧٤ .
(٢٢) الاغانى ج ٨ ص ٩٨ .
(٢٣) تاريخ آداب اللغة طبعة دار الهلال ١٩٥٧ الجزء الاول ص٣٢٢

وقد خطبها من أهلها فأبوا أن يزوجوه منها لأن العرب ــ كما سبق ــ كانت تأبى أن تزوج الفتاة ممن يشيب بها ، وقد بقيت علاقته بها تزداد توقدا وحرارة حتى قضا نحبه ، ومات ولم يتزوج فعاش لها ، ومات على حبها ، وقد كان حبه لها على الرغم من تأبيها ، ودلالها ، وكبريائها ، وتلك صورة من صور ضعف المحبين الذين يرون فى هذا الحرمان ، والكبرياء ، والامتناع ، ما يزيد من كلفهم ويذكى من وقد المحبة فى أفئدتهم .

والى ذلك يشير جميل :

واست على بذل الصفاء هويتها

ولكن سبتنى بالدلال وبالبخل

ولنذكر الآن صورا من مواقفه التى كانت صورة لحياة عاشها هذان الحبيبان تحت تأثير العواطف والعواصف ، أو بعبارة أخرى تحت راية اللقاء تارة ، والحرمان تارة اخرى .

(ج) الشاعر بين العاطفة والعاصفة :

لقد كان جميل يتلمس الفرص الذهبية التى تحين لاتصاله بمحبوبته ، والتحدث اليها ، وقد حدث كثير من المواقف التى ظفر فيها بلقائها ، فكان يبثها ما به من فرط الوجد الذى جعل عوده يجف وورقاته تتساقط ، ويذكر لها آثار الديار ، والأطلال ، وما تحدثه فى نفسه من آلام ، وذكريات ، ثم يحدثها مرة أخرى عن صفة الهوى الذى أنحل جسمه ، وأشحب وجهه ، وأنه مع ذلك ضحيتها وفداؤها ، فهو الذى يقول :

يقيك جميل كل سوء أماله

لديك حدث أو اليك رسول

وقد قلت فى حبى لكم وصبابتى
أحاديث شوق شرحهن يطـــول

فان لم يكن قولى رضاك فعلمى
هبوب الصبا يا بثين كيف أقــول

فما غاب عن عينى خيــالك لحظــة
ولا زال عنهــا والخيــال يزول

ويروى أيضا أنه وقعت بينهما جفوة ثم تصالحا فأنشأ يقول وبثينة تســمع :

لقــد خفت أن يغتالنى الموت بغتــة
وفى النفس حاجات اليــك كما هيا

وانى لتثنينى الحفيظــة كلمــا
لقيتك يوما أن أبثك ما بيـــــا

ألم تعلمى يا عــذبة الريق أننى
أظل اذا لم أسق ريقك صــاديا

فرقت له بثينة ، وقالت لمولاة لهــا كانت معها : ما أحسن الصدق بأهله ، ثم اصطلحا ، فقالت له بثينة : أنشدنى قولك :

تظل وراء الســتر ترنــو بلحــظها
اذا مــر من أترابهــا من يروقهــا

فأنشدها اياها فبكت ، وقالت : كلا ياجميل ومن ترى أنه يروقنى غيرك ؟ وقد التقى معها مرة فقال :

ان المنـــازل هيجت أطـرابى
واستعجمت آياتهـــا بجـوابى
قفرا تلوح بذى اللجـين كأنهـا
أنضـــاء رسم أو ســطور كتـاب
لمـا وقفت بهـا القلوص تبادرت
منى الدموع لفـرقة الأحبـــاب
وذكرت عصرا يا بثينـــة شاقنى
وذكرت أيامى وشرخ شـــبابى

ثم يقول لها فى لقـاء يكشف عن صلته الوثيقة التى لن تنفصـم عراها أبد الآبدين :

يهواك ما عشت الفـؤاد فان أمت
يتبـع صـداى صـداك بين الأقبر

ولكنه يقف موقف المحب الأسير الذى يرضى على كلا الحالين سواء وصله حبيبه أم لا فهو صابر ، يلتمس منـه اللقاء ، ومتعـــه السعادة ان سمح ، وجاد ، وان تمادى فى هجره فليس ذلك يقلل من شأن العلاقة بينهما ، وهـذا يدل على أنه حب عذرى يكتفى بالطيف فى المنـام عن اللقـاء فى اليقظة ، فهو يعيش على منوال الصورة التى رسمها البحترى فى وصف طيف الحبيبه فيقول :

اذا ما الكرى أهـدى الى خيـــاله
شفى قربه التبريح أو نفـع الصدى

اذا انتزعتــه من يــدى انتبــــاهة
حسبت حبيبا راح منى أو غــدا
ولم أر مثلينــا ولا مثــل شــأننا
نعــذب أيقــاظا وننعم هجــدا

وجميل هو الذى يقول ما هــو مناقض لذلك من أنها ان صرمت حبل وده قطعها ولا أثر لذلك عنده :

لحــا الله من لا ينفــع الوعد عنده
ومن حبله ان مــد غــير متين
ومن هــو ذو وجهين ليــس بدائم
على العهــد حــلاف بكل يمــين
ولســت وان عزت على بقــائل
لهــا بعــد صرم يا بثين صــابنى

ثم ان اللقاء عنــده هو غاية الغايات ، ومنتهى السعادة فى جميع الأوقات ، فاذا ما لقيها دانت له الدنيا بأسرها ، ورفت عليه فى حليها ووشيها ، وكانت تشدو بألحان السمو الروحى ، والهوى الصــادق العفيف ، أما اذا فقــد لقاءها فالزمن ظلام دامس ، وهو واقف جامد لا يمر ولا يتحرك لأن الوصل هو الذى يقصره كما قال ابن زيدون :

يقصر قربك ليلى الطويلا ويشفى وصالك قلبى العليلا

وجميل لا يملك لنفسه حيلة الا أن ينفث آلامه ، وهواه فيقول :

انى لأحفــظ غيبــكم ويسرنى
اذ تذكرين بصــالح أن تذكرى

ويـكون يوم لا أرى لك مرسـلا
أو نلتقى فيـه على كأشـهر
يا ليتنى ألقى المنيـة بغتـة
أن كان يوم لقـائكم لم يقـدر

ولكنه الحب الذى يستولى على نفسـه ، ويذهب بهـا مذهب المسحور الذى لا يدرى ، وان كان يدافع عن نفسه فيقول :

يقولون : مسـحور يجـن بذكرها
وأقسم ما بى من جنـون ولا سـحر

أرأيتم أكثر سحرا ، وجنونا مما ذكره من تمنى الوصل ، ومن أنها ان قطعته قطعها ثم يقول :

فلو أرسـلت يوما بثينـة تبتغى
يمينى ولـو عـزت على يمينى
لأعطيتها ما جـاء يبغى رسـولها
وقلت لهـا بعـد اليمين سلينى
سلينى مـالى يا بثين فانمـا
يبين عنـد المـال كل ضـنين

ثم يقول :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها
ولكن طلابيها لمـا فات من عقلى

وقد ظل جميل يلقاها ، ويحرم منها ، ثم تخللت ذلك منازعات ،

وعداوات بينـــه وبين أهلهـــا ، نتيجـــة أن وشى به بعض من أرادوا قطـــع علاقتهما ، فكان يرد عليهم بمثل قوله :

وأطعت فى عواذلا فهجـــرتنى
وعصيت فيك وان جهدت عواذلى
حاولننى لأبت حبـــــل وصـــالكم
منى ولست وان جهـــدن بفـــاعل
فرددتهن وقـــد ســـعين بهجركم
وكما سعين له بأفـــــوق ناصـــل

ثم يقول لبثينـــة :

صـــادت فـــؤادى يا بثين حبالكم
يوم الحجون وأخطـــأتك حبائلى
منيتنى غلـــويت مـــــا منيتنى
وجعلت عاجلا ما وعـــدت لآجل
وتثاقلت لمـــــا رأت كلفى بهـــا
أحبب الى بذاك من متثـــــــاقل

ويتحدث جميل عن هـــذا الحب معتبرا أن الجهاد فى سبيله له أجـــر الشهادة فى سبيل الله فيقول :

يقولون جاهد يا جميل بغـــــزوة
وأى جهـــــاد غـــيرهن أريـــــد
لكل حـــــديث بينهـــن بشاشـــة
وكل قتيـــل بينهن شـــــــهيد

أى صورة فى الأدب العربى أبرز من تلك الصور التى يمثلها هؤلاء المتيمون من بنى عذرة ، يتقدمهم جميل ؟

رأينا صورا شاعرية سحرية ، تجرى مع نسيم الصبا ، وتميل حيث مال ، ثم لما يتملكها اليأس من الظفر بالمحبوب تنطوى على نفسها ، منذرة ، ومعلنة أن قطع حبل الود شىء سهل ، ليس له تأثير ، ولكن ذلك من حديث شخص تيمه الحب ، وسما به الى جو آخر ، فهو يتحدث لا يدرى وهو كلف بها ، لا يصبر عنها ، فهو الذى يقول :

فوالله ما فى القرب لى منك راحة
ولا البعد يسلينى ولا أنا صابر
ووالله ما أدرى بأية حيلة
وأى مرام أو خطار أخاطر

وهو القائل :

أريد لأنس ذكرهما فكأنما
تمثل لى ليلى بكل سبيل(٢٤)

---

(٢٤) الاغانى ص ٩٦ ثم يقول ان البيت سرقة كثير عزة وأدخله فى شعره .

(د) الشاعر نموذج للحب العذرى

وقد وقع خلاف شديد بينه وبين أهلها من جـراء حبه لهـا فلقد ثار القوم لشرفهم ومروءتهم ولكنه رغم ذلك كان يغشى حبها ، ويذهب اليها ، لأنه كان شجاعا مقداما ، وقد مثل دوره فى الحياة بشجاعة لأن قومه كانوا فى عزة ومنعة ، لم يتوافر مثلها لقوم بثينة فكانوا يضعفون عن قتالهم ، ولذلك كان يلتقى بهـا ، ولا يهاب فهو الذى يقول :

فليت رجالا فيـك قـد نذروا دمى
وهموا بقتلى يا بثين لقـــونى
يقولون لى أهـلا وسهلا ومرحبا
ولو ظفروا بى خاليـا قتـلونى
وكيف ولا توفى دمـاؤهم دمى
ولا مالهم ذو ندهـة فيـدونى

وقد كان قومها يشكونه الى أهله ، ولكن سـلطان الحب العذرى أقوى من القوة الظاهرة ، فلا يمكنها أن تسيطر عليه ، ولمـا يئسوا من تركه لهـا ، وعجزوا عن منعـه اسـتعدوا عليـه مروان بن الحـكم فأهدر دمه ، واستباحه لمن يظفر به ، وفى ذلك يقول وقد أوعده بقطع لسـانه أضـا :

أتانى عن مروان بالغيب أنه مقيد دمى أو قاطع من لسانيا
ففى العيش منجـاة وفى الأرض مذهب
اذا نحن رفعنـا لهن المثانيـا

وبالرغم من أن مروان قـد أهدر دمه فانه كان يتصل ببثينـة ، ويتحدث اليها،ومع ذلك لم يجترىء أحد على قتله ، وقد كان كل مافى وسعهم أن يشكوه الى أبيـه ، وأهله ، ليفرقوا شـمله ، أو يخففون

حـدة هـذا الحب الغائر فى سرائر نفسه ، وليحفظوا كرامتهم ولقد كان جميل غارقا فى حبه يأتمر بأمره ، وينتهى بنهيه ، لأن الحب تيمه ، وذلله ، فلم يؤثر فيه أى عامل يدعو الى تناسيه ، مهما يكن شأنه ويروى صاحب الأغانى « أنه لما طلب منه أبوه أن يكف عن حبه قال جميل له : هل رأيت قبلى أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه ، أو ملك أن ينسى نفسه ، أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه ؟ والله لو قدرت أن أمحى ذكرها من قلبى ، أو أزيل شخصها عن عينى لفعلت ولكن لا سبيل الى ذلك ، وانما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لى ، وأنا أمتنع من طروق هذا الحى ، والالمام بهم ، ولو مت كمدا ، وهذا جهدى ، ومبلغ ما أقدر عليه ، وقام وهو يبكى فبكى أبوه ، ومن حضر جزعا لما رأوه منه ، فذلك حين يقول جميل :

ألا من لقلب لا يمل فيذهل
أفق فالتعزى عن بثينة أجمل
سلا كل ذى ود علمت مكانه
وأنت بها حتى الممات موكل
فما هكذا أحببت من كان قبلها
ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل
وان التى أحببت قد حيل دونها
فكن حازما والحازم المتحول
ففى اليأس ما يسلى ومن الناس خلة
وفى الناس عمن لا يواتيك معزل

ويذكر صاحب الأغانى أيضا : أن ابن عمه ويسمى روق بن عمرو لامه فى قصره هواه على بثينة ، وقال له : ان النساء غيرها كثير ،

قال له جميل : يا أخى لو ملكت اختيارى لكان ما قلت صـوابا ولكننى لا أملك الاختيار ولا أنا الا كالأسير لا يملك لنفسه نفعا .

ان اللسـان بذكرها لموكل والقلب صاد والخواطر صور

وقال فى عذل ابن عمه :

لقـد لامنى منهـا أخ ذو قـرابة
حبيب اليـه فى ملامتـه رشـدى
وانى لمشـتاق الى ريـح حبهـا
كما اشـتاق ادريس الى جنة الخلد
تعلق روحى روحهـا قبـل خلقنـا
ومن يوم ما كنا نطـافا وفى المهـد
ولو سـألت منى حيـاتى بذلتهـا
وجـدت بهـا ان كان ذلك من أمرى
فان كان رشـدا حبهـا أو غواية
فقـد جئته ما كان منى على عمـد
اذا ما نظمت الشـعر فى غير ذكرها
أبى — وأبيها — أن يطاوعنى شعرى

وهكذا ترى سيطرة القوة العجيبة لهـذا اللون من الحب ، ومنه تدرك أن هـذا السلطان الجـائر لا يمـكن منعه ولا ايقافه عند حد .

جميل ورحلتـه الأولى

ولكن جميلا رغم ذلك رجل عربى ، يحب الحرية وأن ينال أهدافه التى يطمح اليها فلما حيل بينـه ، وبين بثينـة ، وترصـده أهلها ، وعمدوا بكل الوسائل على قطع علاقته بها ، ومع شـجاعته وبطولته ، وذوده عن حياض كرامته ، ومآربه ، وقـد كان كما قلنـا فى منعـة

لم يتمكن آل بثينة من منعه عن وصالها ، ولكنه ضاق ذرعا بالأمر حينما استعدوا عليه مروان بن الحكم ، فأهدر دمه ، وهدده بقطع لسانه كما سبق ، ونحن نراه فى موقفه من ذلك يقف بين هواه ، وعواطفه ، وبين الحوادث التى تكر عليه ، فيقول :

منع النوم شدة الاشتياق ... وأدكار الحبيب بعد الفراق
ليت شعرى اذا بثينة بانت ... هل لنا بعد بينها من تلاق
ولقد قلت يوم نادى المنادى ... مستحثا برحلة وانطلاق
ليت لى اليوم يا بثينة منكم ... مجلسا للوداع قبل الفراق

وهنا نجده يغادر وطنه الحبيب الى نفسه ، ويسير الى اليمن لينقذها من هذا اليأس الذى لحقها ، من تضييق الخناق عليه ، فلم ير بدا من أن ينطلق الى فسيح الأرض ، لينفرد بأحزانه ، وأسقامه هناك .

ثم استمر جميل باليمن حتى عزل مروان فعاد مرة ثانية الى مهد أحلامه ، وعش شبابه ، وموطن سعادته ، ليلتقى مع شمسه التى تشرق داخل نفسه ، وتنبض بحبها أحاسيسه ومشاعره ، ولكنه عاد فوجد ظلاما دامسا ، وزمانا عابسا ، وأرضا مقفرة ، وأطلالا عافية ، ورسوما دارسة ، وسمع نواح الكائنات وبكاء الحمامات ، فذهب يتلمس الراحة فلم يجدها ، ويبحث عن النور فلم يعرف اليه سبيلا .

ان المنازل هيجت اطرابى
واستعجمت آياتها بجوابى
قفر تلوح بذى اللجين كأنها
أنضاء رسم أو سطور كتاب

لمـا وقفت بهـا القـلوص تبـادرت
منى الدموع لفرقة الأحبـــاب
وذكرت عصرا يا بثينـة شـاقنى
وذكرت أيامى وشرخ شـــبابى

وقف وساءل الديار والأطلال ، ثم عرف أن الشمس التى كانت تطلع عليه غربت من هـذا الوطن ، وتركته حالك الدجى ، ثم أشرقت على بلاد الشام ، وقد ارتحلت مع أهلها الى هناك ، فعض على يديه ، وطارت نفسه شعاعا من الكروب •

وأخباره بعد هذه العودة قليلة كما يذكر الرواة لأن أهلها ذهبوا الى الشام ، ولكن الحب المتدافع يسوقه بسيله الجارف الى هنـاك ، ليحظى ، أو لعله يحصل على راحة ولمـا ذهب الى هناك أخذ ينظر متى يلقى آماله تتفتح ، ونهاره يطلع فجره فيلقـاها فى لقـاء الحبيب • ولمـا طال مقامه(٢٥) بالشام راسلته بثينة تذكره بشوقها ، ووجدها به ، ثم واعدته موعـدا ، ووفت به ، ثم التقيـا ، ولكن علم أهلهـا فخرجوا للقـائه ، منهم أبوها وأخوها فكان أن قام وتقلد سيفه ، وهم بهم فهربوا وناشدته بثينة الله الا انصرف ، وقال وقد انقطع التلاقى بينهما طويلا :

ألم تسأل الربع الخـلاء فينطق
وهل تخبرنك اليـوم بيداء سملق
وقفت بهـا حتى تجـلت عمايتى
ومل الوقوف الأرحبى المنـــوق

---

(٢٥) الاغانى ج ٨ ص ١٤٥ •

تعـز وان كانت عليـك كريمـة
لعـلك من رق بثينـــة تعتـق
لعمركم ان البعـــاد لشـائقى
وبيض بعـاد البين والنأى أشوق
لعـلك محـزون ومبـد صـبابة
ومظهر شـكوى من أناس تفرقوا

وذكروا أنهما تلاقيا مرة ، وكان مودعا لها ، فدخل عليها على غفلة من الرقباء ، وقد امتلأت نفسه من مآسى الفـراق المـر الذى أذهب نضرة شبابه ، ولما رأته قالت له : أهلكتنى والله ، وأهلكت نفسك ، ويحك أما تخاف ؟ فقال لها انما جئتك مودعا ، فحادثها طويلا ثم قال لها وهو يبـكى :

ألا لا أبالى جفوة الناس ما بدا
لنـا منك رأى يا بثين جميـل
وما لم تطيعى كاشحا أو تبـــدلى
بنا بدلا أو كان منك ذهـــول
وانى وتكرارى الزيـارة نحـوكم
بثين بذى هجـر بثين يطـــول
وان صـــباباتى بـكم لكثـيرة
بثين ونسـيانيكم لقـــليل(٢٦)

---

(٢٦) الاغانى ج ٨ ص ١٣٧ .

ويقول بعض رواة عذرة : انه لقيه بعد أن رحل آل بثينة وقد قدم جميل من اليمن • فقال له : ماذا أحدثته من بعدى فأنشده :

سقى منزلينا يا بثين بحاجر
على الهجر منا صيف وربيع
ودورك يا ليلى وان كان بعدنا
بكين بلى لم تبكهن ربوع
وخيماتك اللاتى بمنعرج اللوى
لقمريها بالمشرقين سجيع
تزعزع منها الريح كل عشية
هزيم بسلاف الرياح رجيع(٢٧)

بين العاطفة والذات

ان هذا الحب يملك على صاحبه سرائره ، ووجوده ، فهو يتمنى أن يقرب البعيد ، ويزول العذاب ، ويرجو أن يرفق به دهره ، فيصادف من شراب المودة ما يروى به كبده المقروحة ، الملتهبة ، وهو فى سبيل ذلك يريد أن يرى الراحة لنفسه ، ولو كان ذلك بيلى من يحب كما يقول جميل :

رمى الله من عينى بثينة بالقذى
وفى الغر من أنيابها بالقوادح

فهو دعاء منه عليها بهذا البلاء الذى أشار اليه البيت من اصابة

---

(٢٧) المصدر السابق ج ٨ ص ١٢٤ •

عينيها ، وثغورها الجميلة بمـا يضرها ، ويذهب بجمـالها وراحتها ، واشراق محياها .

وقد يظن الانسان أن ذلك مناف للأخلاق الكريمة ، ولكننا نرى أن ذلك ليس كما يظن ، وانما هـو من فرط الصـبابة ، وحـرقة الشوق والوجـد بهـا .

أما أن يزعم انسان أن ذلك من مبطلات غرامه ، وآيات نفى قصته أمثال الدكتور طه حسين فذلك لغو بديهى،ولقد وقع ما هو أكثر من ذلك لاميذه كثير حيث يقول :

ألا ليتنـا يا عز من غـير ريبـة
بعيران نرعى فى الخـلاء ونعزب
كلانا بـه عـر فمن يرنـا يقـل
على حسنها جـرباء تعـدى وأجرب
اذا ما وردنا منهـلا صـاح أهـله
علينا فمـا ننفـك نرمى ونضـرب
وددت وبيت اللـه أنك بـكرة
هجان وأنى مصعب ثم نهـرب
نكون بعـيرى ذى غنى فيضيعنا
فلا هو يرعانا ولا نحن نطـلب

وذلك كان مثار الضحك والنقد من الشعراء والنقاد فقالوا له : ويلك تمنيت لها ، ولنفسك الرق والجرب ، والرمى والطرد والمسخ ، وقـد كان كثير رجـلا أدعق لا يزيد على ثلاثة أشبار ، وغيره أحسن منـه

بلا شك ، فربما تضيع منه حبيبته بين لهو هؤلاء ، وعبث أولئك ، فلم يجد لنفسه حاميا الا أن تكون بهذا المنظر الزرى الذى لا يحفظها ولا يصونها .

ى ومع ذلك فاننا لا يمكن أن ننكر قصة كثير عزة لهذا الشعر لأنه ، وان كان سخيفا من جهة التصوير ، والتعبير فانه يعبر عن صدق العاطفة التى تريد أن تحصل على راحتها بأى طريق ، ووسيلة .

وغير ذلك فان كثيرا من العشاق قد كان منهم من يتمنى لحبيبته الموت أو التشويه ، أو التخلص منها وذلك كقول المجنون :

فيارب اذ صيرت ليلى هى المنى
فزنى بعينيها كما زنتها ليا
والا فبغضنى اليها وأهلها
فانى بليلى قد لقيت الدواهيا

وقول جنادة العذرى :

من حبها أقنى أن يلاقينى
من نحو بلدتها ناع فينعاها
كيما أقول فراق لا لقاء له
وتضمر النفس يأسا ثم تسلاها
ولو تموت لراعتنى وقلت ألا
يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها

فالحب العذرى داء للفؤاد يرجو صاحبه أن يجد الشفاء منه ، ولو كان ذلك على حساب المحبوب ، كما ذكرنا ، وجميل يقول :

فلا نعمت بعـدى ولا عشت بعـدها
ودامت لنا الدنيـا الى ملتقى الحشر

هجـرة الفـراق الأبـدى

ولقد استمر جميل على صلته ببثينة ، ولكن الزمان حال بينـه وبينها ، وضايقه أهلها ، وسدوا عليه المسالك ، فلم تتحمل نفسه أكثر من ذلك ، ومل الحياة ، والأحياء ، وفكر فى الرحيل الى مصر ، وقد رحل اليها ، واتصل بحاكمها عبد العزيز بن مروان ، ومدحه ، فقبل مدائحه ، وأكرم وفادته ، وأذن له بمنزل ، وما يصلحه فما أقام به الا قليـلا ، ثم مات سـنة ٨٢هـ .

ويتبين اضطهاد أهلها له ، وسقمه وشدة مله من قوله :

أجدك لا ألقى بثينة مرة من الدهر الا خائنا أو على ذعر

ويروى ابن قتيبة : كيف ودع جميل بثينـة هـذا الوداع الأخير الذى لم يقـدر لهما اللقـاء بعـده ، فيقول : وكذلك يتابعه صـاحب الأغانى(٢٨) ـ بسنديهما ـ عن عجوز تحدثت عن جميل وبثينـة ، فقالت : « والله انا لعلى ماء بالجناب ، وقد تنكبنا الجادة لجيوش كانت تأتينا من قبل الشام ، تريد الحجاز ، وقـد خرج رجالنـا لسفر ، وخلفوا معنا أحداثا ، فانحدروا ذات عشية الى صرم(٢٩) . قريب ، يتحدثون الى جوار منهم ، فلم يبق غيرى ، وغير بثينة اذا انحدر علينا منحدر من هضبة ، فسلم ونحن مستوحشون وجلون ، فتأملته ، ورددت السلام ، فاذا جميل فقلت :

---

(٢٨) الشعر والشعراء والاغانى ج ٧ ص ٢٠٣ .
(٢٩) صرمه الشىء صرما : قطعه ، والصريم : ما جمع ثمره .

أجميل ؟ فقال : اى والله ، واذا به لا يتماسك جوعا ،فقمت فأتيت بطعام ، ثم تذكر أنه بعد الطعام تراجعت نفسه ، فقالت له : لقد جهدت فما أمرك ؟ قال : انا والله فى هذه الهضبة التى ترين منذ ثلاثة أيام ما أريمها ، أنتظر أن أرى فرجه فلما رأيت منحدر فتيانكم أتيتكم لأودعكم ، وأنا عامد الى مصر ، ثم ودعنا وشخص فلم تطل غيبته أن جاءنا نعيه » .

وهو يرينا هذا الموقف الحزين فى شعره حيث يقول :

وما أنس م الأشياء لا أنسى قولها
وقد قربت نضوى أمصر تريد
ولا قولها لولا العيون التى ترى
أتيتك فاعذرنى فدتك جدود

وهو يعنى ذلك الموقف الأخير فى قوله :

فمن كان فى حبى بثينة يمترى
فبرقاء ذى ضال على شهيد

وكان يقول وهو بمصر :

تذكرت من أضحت قرى اللد دونه
وهضب لتيما والهضاب وعور
فظلت لعينيك اللجو حين عبرة
بسرح الهوى فتمور
على أننى بالبرق من نحو أرضيها
وان قصرت عنه العيون بصير

وعندما أحس بدنو أجله بلغ به الحزن أقصاه لانه غريب عن مسقط رأسه ، ومبعث هواه ، فأخذ يستعيد الذكريات ، ولكنه لم يقو على الرجوع الى بثينة ، روحه وحياته ، وسعادته التى هاجر من أجلها ، فكلف رجلا من ذى الكفاية والقدرة على أن يمنحه كل شىء يمتلك اذا ما قدر له أن يموت على أن يأتى بعد موته رهط بثينة ، وأن يرتدى حلته وأن ينشدها ، هناك ، أبيات جميل الأخيرة التى يودع بها من أحب والتى يسأل فيها هذا الحبيب أن يبكيه ، وأن يندبه ، وأن يحزن عليه ، لأنه ليس هناك حبيب يعدله فى وجده ، واخلاصه ، وقد قضى نحبه بعيداً عن أهله ، وآهلها ، ولكنه كان قريبا منهم بما كان يراوده كل فينة وأخرى من ذكريات ، ولما فارق الدنيا وبثينة هذا الفراق الأبدى ذهب الرجل الى آل بثينة وأنشد قول جميل الأخير :

صرخ النعى وماكنى بجميل
وثوى بمصر ثواء غير قفول
ولقد أجر الذيل فى وادى القرى
نشوان بين مزارع ونخيل
قومى بثينة فاندبى بعويل
وابكى خليلك دون كل خليل

ولم تصدق هذا النبأ ، وظنت الرجل عابثا يريد استثارة الشوق ، وقالت : يا هذا لئن كنت صادقا لقد فضحتنى ، وكانت قد خرجت فى دجنة وهى تمشى فى مرطها كأنها بدر منير فلما أكد لها النهاية المؤلمة خرت على الأرض مغشيا عليها ولما استفاقت أنشدت :

وان سلوى عن جميل لساعة
من الدهر ما حانت وما حان حينها

ســواء علينا يا جميل بن معمر
اذا مت بأســاء الحــياة ولينهــا

وبموت جميل أستاذ الغزل البدوى العفيف يكاد يموت هــذا اللحن الذى تعالى فى البادية ، ويساير لحن الغزل الحضرى الذى نشأ من مــكة والمدينة ، والذى حمل لواءه عمر بن أبى ربيعة •

الشــاعرية والشــاعر

كان الغزل ــ كما علمنا ــ فى الجاهلية وصدر الاسلام عبارة عن مجرد افتتاحيات للقصائد يخلصون منها الى أغراضهم الأخــرى من المدح أو غــيره •

ولكن فى العصر الأموى نشأ الغزل بمدارسه المختلفة وكان جميل ــ ولا يزال ــ بحق أستاذ هــذه المدرسة وقد أرسى دعائم الغــزل الرقيــق الجيــد •

ويقول قدامة بن جعفر :

ان الغزل الجيد هو ما تكثر فيه من الدلالة على التهالك والصبابة ، وافراط اللوعة ، والحــزن(٣٠) ثم يعلق د• بدوى طبــانه على ذلك ويقول(٣١) : ان هــذا هو الغزل العــذرى الذى يفيض بالعواطف المشبوبة وآثار الكبت والحرمان ، وشعرهم تغلب عليه وحدة الموضوع اى انهم يقصرون قصائدهم على التشبيب دون غيره كما يفعله غيرهم

(٣٠) نقد الشعر لقدامة •

(٣١) انظر كتابه قدامة بن جعفر والنقد الادبى •

من الشعراء ، ويدخل فيه التشوق ، والتذكر لمعاهد الأحبة بالرياح الهابة ، والبروق اللامعة ، والحمائم الهاتفة ، والخيالات الطائفة ، وآثار الديار العافية ، وجميع ذلك يتبين فيه الأدلة على عظم الحسرة، والأسى .

معارف تلدى بالفؤاد وان تقل
لها بيني حاجة لم تكلم

وهذا كله قد توافر فى شعر جميل امام العذريين ثم يقرر د. بدوى : أن فى شعر جميل وقيس وكثير عزة وابن أبى ربيعة وغيرهم من فحول الشعراء روائع من الشعر جياد .

وشعر جميل يمتاز بالرقة ، واللطافة ، وذلك احتاج لأن تكون ألفاظه رقيقة ، وقد أتت كذلك فمع أنه شاعر بدوى نراه يقتطع ألفاظه من قلبه لا من بيئة الصحراء ، وذلك ما يقرره قدامة بن جعفر فلا غرو اذا كان غزله فى روعته غاية فى الجودة والابداع والأمثلة كثيرة(٣٢) .

الموسيقى الشعرية فى شعر جميل

ان شعر جميل لو تأملناه وجدناه كله يصلح للغناء لأنه شعر رقيق ، يسرى على نمط الاهتزازات ، والموجات العاطفية التى تنساب كالسحر، ويؤيد لنا ذلك أن كتاب الأغانى يذكره بين من ذكر من الشعراء ، ثم يقول : « هذا صوت من شعر جميل غناه فلان ، وهو من الغناء الذى يأخذ صورة كذا وكذا » وهكذا نجد أنه شعر حساس ينبض بالعاطفة ،

---

(٣٢) انظر ص ٣٩ وما بعدها فى هذا البحث .

ويفيض من ملأ علوى من نور الحب الصافى ، ويذكر الدكتور بدوى طبانه فى كتابه السابق أن للشعر موسيقى ، وتلك الموسيقى لها مظاهر فى الشعر وهى :

١ ــ الألفاظ المفردة التى يسميها نقاد الشعر (الألفاظ الشعرية) وهى التى يختارها الشعراء لتلائم طبيعة الشعر الخيالية والموسيقية والموضوعات التى يعالجونها .

٢ ــ الانسجام الجملى الخاص الذى يبدو فى اتحاد النظم فى التراكيب أو الأبيـات ، وذلك النغم يتمثل فى المقاطع والتفاعيل التى تتكون منها أخيرا الأوزان والبحور .

٣ ــ والقافية فى الشعر العربى بخاصة شأن لا يستهان به فى اكمال هـذه الموسيقى .

٤ ــ معانى الشعر ، ولها خصائص تخالف خصائص معانى سائر الفنون من الكلام ، ومن تلك الخصائص اعتمادها على الخيال ، والالتجاء الى الأساليب البيانية كالاستعارة والتمثيل والتشبيه والكناية ، وغيرها من وسائل الافتنان وكل هذه الخصائص تتوافر فى شعر جميل من حيث الألفـاظ الشعرية ، والانسجام بين الجمل والعبارات والمعانى السامية ، والقوافى المتلائمة مع غرضـه الذى أنشأ الشـعر فيه أرأيتم أعذب موسيقى أو أكثر سحرا من قوله :

يقيـك جميل كل سـوء أما له
لديك حديث أو اليـك رسـول
وقد قلت فى حبى لكم وصبابتى
أحاديث شـوق شرحهن يطـول

فان لم يكن قولي رضـــاك فعلمى
نسيم الصـــبا يا بثين كيف أقول

وغير ذلك مما ذكرته من الشعر فى الفصل السابق وانمـــا أوردته هـــذا على سبيل المثال وشعره كله يحمل هـــذه الموسيقى العذبة التى تفوح وتتطاير من أزهاره وورودة •

الألفـــاظ والأســـاليب والمعـــانى

أما ألفاظه فهى كما سبق ألفاظ شاعرية عذبة النغم سهلة المخرج تدخل الى النفس دخول النسيم شغاف القلوب وثناياه ، وان هذا النوع من الحب الذى أقام جميل مدرسته يدعو الى هـــذه الألفـــاظ وقد كان شـــاعرا يجمع بين البلاغة والسهولة ، ويصـــعد الى مرتبة عالية بين شعراء عصره ، وقد كان الأمر فى الشعر عنـــد الجاهليين والاسلاميين والأمويين يجرى على الفطرة ، والطبيعة وليس فيـــه تكلف ، والفطرة لهـــا محاسنها من الصـــدق والبساطة ، وقرب الأداء ، وان كان لهـــا بعض عيوب هى السذاجة وقلة الاتقان ، ولكن جميلا قد بلغ حـــدا بعيدا فى الاتقان باختيار الألفـــاظ والأساليب التى هى من الســـهل الممتنع ، وقـــد خلت من كل ما يخل بالفصاحة والبلاغة على السواء ، فلا وحشية ولا غرابة ولا حوشية ولا معاظلة فى شعره •

والأمثلة كثيرة على ذلك قيما مر من شعره الذى نرى فيه بيـــانا كوضح النهار ، يتفتح على القلوب والعقول فيتملكها ويستولى عليهـــا بعـــذوبة ألفاظه و ـلامة تراكيبه ، وتآلفها ، وأخـــذ بعضـــها بحجز بعـــض •

اسمعه يقول مثـلا :

اذا ما دنت زدت اشـتياقا وان نأت
جزعت لنأى الدار منها وللبعـد
أبى القلب الا حب بثينة لم يرد
سواها وحب القلب بثنة لا يجدى
يموت الهوى منى اذا ما لقيتهـا
ويحيـا اذا فارقتهـا فيعـود

أفى هـذا الشعر ما يكد (٣٢) اللسان أو يثقل ؟ أو فيـه ما يتنافر مع الذوق أو يتنافى ؟ بل هى روضة شعرية تتغنى طيورها ، وتصفق مياهها ، وتمر نسماتها فما يحس القارىء الا سحرا واعجابا أيما اعجاب •

ولا ريب أن المعانى التى يتحدث عنها جميل انما هى معان سامية ، تخرج من سرائر نفسه ، ويفيض بهـا احساسه ومشاعره ، ولقد كانت تلك المعـانى ـ ولاتزال ـ تستولى على عقول من يقرأونها ويطلعون عليها ، لأنها معان فطرية ، حقيقية ، خالصة ، تصف ما يهتز به فؤاد مضنى ونفس تلتهب وجدا وتذوب •

ولذلك فاننـا نجد الكثير من فحول الشعراء والأدباء والنقـاد يطربون لتلك المعانى التى تناولها جميل ، وطرقها فى شعره ، ونجدهم يطيرون اعجابا بهـا واطراء عليها •

---

(٣٢) كد فلانا : أرهقه فى العمل •

يروى صاحب الأغانى عن رواته يقول :

أخبرنى محمد بن يزيد قال : حدثنا الزبير بن بكار عن بعض الرواة : دخل علينا كثير يوما وقد أخذ بطرف ريطته وألقى طرفها الآخر وهو يقول : هو وحده أشعر الناس حيث يقول :

وخبرتمانى أن تيماء منزل
لليلى اذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذى شهور الصيف عنى قد انقضت
فما للنوى ترمى بليلى المراميا

ويجر ريطته حتى يبلغ الينا ثم يقول : هو والله أشعر الناس حيث يقول :

وأنت التى ان شئت كدرت عيشى
وان شئت بعد الله أنعمت بالبا
وأنت التى ما من صديق ولا عدا
يرى نضو ما أبقيت الا رثى ليا

فقلنا : من تعنى يا أبا صخرة ؟ قال : ومن أعنى سوى جميل (٣٣) .

ويقول ابن قتيبة : (ان أشعاره مشهورة لحسن اللفظ وصقالته ، ودبيج أجزائه ، ودقة المعنى ، وهى صادرة عن قلب صادق الصبابة ، تأملوا قوله :

---

(٣٣) الاغانى ج ٨ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

خليـــلى فيما عشـــتما هل رأيتمـــا
قتيلا بكى من حب قاتله قبلى(٣٤)

وان الأديب ليس أمامه من وسائل التعبير سوى الألفاظ والكلمات، والقياس الذى تقيس به الأدب كافة شعرا كان أو نثرا هـــو قـــوة التعبير وكلما فاضت العبارة بمعانيها ، ومشـــاعرها ، وعواطفها التى قصـــد الأديب أن يسوقها فيهـــا كان أدنى الى الأدب الصحيح على شريطة ألا يقصد من العبارة أن تؤدى معنى عقليـــا خالصا يمـــكن للرموز الجافة أن تؤديه ، بل لابـــد أن تحمل الألفـــاظ الى جـــانب معانيها العقلية محمولا من العواطف الانسانية والصور الذهنيـــة والمشاعر الحيـــة التى تجمعت حـــول تلك المعانى على مر الدهـــور بفضل ما مرت به الانسانية من تجارب(٣٥) .

وقد نبه قدامة بن جعفر على (أن الأشعار انما تقدم وتستجاد توافر لها من جودة اللفظ ، وان جاءت خالية من سائر النعـــوت تلازم اجتماعها فى الشعر)(٣٦) .

ويقول الجاحظ : (وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجـــزاء ، سهل المخارج ، وتعلم بذلك أنه قـــد أفرغ افراغا واحدا ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى البرهان)(٣٧) .

---

(٣٤) الشعر والشعراء ط الليدنية ص ٢٦٠ .
(٣٥) فنون الادب ص ١٦ .
(٣٦) نقد الشعر ص ٢٠ .
(٣٧) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٧ .

وهذه الدلائل الكثيرة التى سقتها تدل على أن شعر جميل شعر جيد ، يعلو ، ويرتفع الى مرتبة الفحول من الشعراء لأنه سهل الألفاظ سلس التراكيب ، والأساليب ، قوى المعانى التى بلغت الغاية فى السمو والبلاغة ، فهو جامع لكل شرط أورده نقاد الشعر من قدماء ومحدثين ، فما أجزل هذه الألفاظ ذات القوة والجرس ، وأحسن بهذه الأساليب المحكمة المتماسكة المتآلفة ، وأعظم بتلك المعانى النادرة التى لا يعرفها الا هذا الشاعر الأصيل .

وقد مرت بنا أمثلة كثيرة كلها فى غاية الجودة ، والابداع ، والقوة التى تكشف عنها ، وأحب أن تقرأ معى هذه الأبيات البليغة التى قالها فى الفخر بقومه :

يجيب الغوانى البيض ظل لوائنا
اذا ما آتانا الصارخ المتلهف
نسير أمام الناس والناس خلفنا
فان نحن أومأنا الى الناس وقفوا
وكنا اذا ما معشر نصبوا لنا
ومرت جوارى طيرهم وتعيفوا
وضعنا لهم صاع القصاص رهينة
بما سوف نوفيها اذا الناس طففوا

انها — بدون ريب — تكشف عن براعة جميل الشاعر المطلق ، وكيف كان يصوغ كواكب المعانى عقودا تبهر الناظرين .

البـــلاغة فى شـــعره

اذا تحدثنا عن هـــذه العبقرية البلاغية التى ضربت بسهم وافر فى ميدان الشعر العربى فاننا نقول : انه شاعر هيأت له ظروفه التى عاش فيها ، وأحـــواله الاجتماعية التى كانت تحيط به ، وأدت له من الوسائل الفنية ما جعل أسلوبه يروق ، ويسلس ، ويتسم بالرصانة ، والجزالة ، والاحكام ، والرقة ، والعذوبة ، وتلك هى البلاغة فقد قالوا « ان البلاغة هى أن يأتى الانسان بكلام يظن أنه من السهل الاتيـــان بمثله فاذا ما حاوله أى انسان عجز » •

ذلك كان طابع شعر جميل •

وقد كان لجميل حظه الوافر من الغزل ، والفخر على الســـواء فسمعت به الحواضر ، والبـــوادى ، وتجمعت الأعراب من كل مـــكان لسماع أراجيزه ، وأشعاره ، وقد خرج من شعره بنصيبين :

١ ـــ كان شعره جناية عليه ، حيث سبب الحيلولة بينه وبين من أحبها ، ووهبها حياته بالرغم من أن قومه كانوا فى ثراء واسع وجـــاه عريض •

٢ ـــ ومن جهة أخرى فان شعره ابلاغته ، وفصاحته ، وصـــــدق عواطفه قد كان محط أنظار كل قبيلة فى البيداء ، وعلى الأخص ذلك الغزل الذى أثار قوم بثينة ، فتوعدوه من أجله بالقتل •

واذا أردنا أن نبحث عن النواحى البلاغية والاتجاهات الأدبية فى شعره فان هناك حقيقة واحدة نقررها ، وهى أن شعره فى مصاف شعر الفحول من أدباء الشعر العربى ، بما جمع فيه من شتى ألوان البيان ، ففيه التشبيهات الرائعـــة ، والاستعارات ، والمجازات ، والكنايات التى قلما تتوافر الا لشاعر عبقرى مثل جميل •

اقرأ معى هذين البيتين الرائعين فى التشبيه يصف بثينة فيقول :

هى البدر حسنا والنساء كواكب
وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسنا على الناس مثلما
على ألف شهر فضلت ليلة القدر

فقد شبه بثينة بالبدر فى الحسن والجمال والنساء حولها بالكواكب تشبيها بليغا ، فقد حذف منه الأداة ، وجعل من التشبيهين تشبيها مركبا من هيئة ظهورها بمظهر البدر بين سائر الكواكب ، فلا ضوء الا لها ، وغيرها بجوارها لا يعتبر شيئا مذكورا .

وفى البيت الثانى ضرب لها مثلا تشبيهيا فى فضلها على سائر الناس ، فجعل لها من الفضل ما لا ينكره أحد كما أن فضل ليلة القدر على ألف شهر ثابت بالنصوص فلا مجال للمعارضة فيه ، ويقول أيضا :

سبتنى بعينى جؤذر وسط ربرب
وصدر كغاثور(٣٨) اللجين وجيد

فهو يقول انها أسرته بعينين يشبهان عينى الجؤذر وهو ولد البقرة الوحشية ، ثم انها سبته أيضا بصدر لامع براق لمعانا كلمعان الفضة ، ومن كناياته الرائعة قوله :

نسير أمام الناس والناس خلفنا
فان نحن أومأنا الى الناس وقفوا

---

(٣٨) الغاثور : الطست من فضة أو ذهب، القاموس المحيط ص ١٠٧، ج ٢ طبعة ١٣٤٤هـ .

فهو يرفع من شأنه ، وشأن قومه ، ويقول : انهم قوم لهم السيادة ، والقيادة فى المجتمع ، فهم أولو منعة تجعلهم يسوسون الناس فهم ، المقدمون ، والذين لهم الكلمة ، فاذا أصدروا أمرا الى أحد نفذ وكان تحت طاعتهم •

وذلك دليل على رفعة قومه ، ومكانتهم ، فهى كناية بديعة

ويقول أيضا :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها
ولكن طلابيها لما فات من عقلى

وهو كناية عن أن بثينة قد ملكت عليه حسه ، وشعوره ، وسلبته عقله ، بمعنى أنه انصرف اليها ، وهام بها واستولت على حياته فلا مفر من طلبها والتعلق بها •

ومن الاستعارات الرائعة قوله :

خليلى فيما عشتما هل رأيتما
قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

وقد هول من شأن نفسه ، وسحرها له ، فجعل نفسه قتيلا ففى كلمة (قتيل) فى البيت استعارة بديعة ، ولكنه قتل لا تذوب فيه الدماء ، وانما تذوب فيه القلوب •

لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل بينهن شهيد
فان تبينى بلا جرم ولا ترة
وتولعى بى ظلما أى ايلاع
فقد يرى الله أنى قد أحبكم
حبا أقام جواه بين أضلاعى

لولا الذى أرتجى منــه وآمله
لقــد أثيــاع بموتى عنــدها ناع

فقد خاطب محبوبته ، وأبان لها أنه باق على حبها فهى تنأى عنه ، وتظلمه ببعادها ، وفى الأبيات التفات من الخطاب الى الغيبة ، وعبر فى البيت الأول بالمفرد ، ثم انتقل الى التعبير بالجمع فى وقت واحد .

وكان يوجز فى قصائده ، فلا تتجاوز الأبيات ، ويحمل الكثير من شعره معانى عديدة لا يمــكن حصرها ، واستمع الى هذا البيت :

مفلجة الأنيــاب لو أن ريقهــــا
يداوى به الموتى لقــاموا من القبر

والخلاصة أن شعره مملوء ببديع البيان وشتى فنونه .

جميل فى ميزان النقــد الأدبى

منزلتــه الشــعرية :

(أ) عنــد القــدامى :

حدث محمد بن يزيد بن أبى الأزهر قال : حدثنــا حمــاد بن اسحاق عن أبيه قال : دخلنا على الرشيد يوما فقال لى : يا ابا اسحاق أنشدنى أحسن ما تعرف فى عتاب محب ، وهو ظالم متعتب ، فقــال يا أمير المؤمنين قول جميل :

رد المــاء ما جاءت بصفو ذنائبه
ودعه اذا خيضت بطــرق مشاربه

---

(٣٩) خاض الماء : دخله ومشى فيه .

أعاتب من يحـلو لـدى عتـابه
وأترك من لا أشـتهى وأجـانبه
ومن لذة الدنيـا وان كنت ظالمـا
عنـاقك مظلوما وأنت تعـاتبه

فقال : أحسن والله ، أعدها على فأعدتها حتى حفظها ، وأمر لى بثلاثين ألف درهم(٤٠) .

وحكى عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك أنه قال :
لم تقل العرب بيتـا أغزل من قول جميل :
لكل حديث بينهن بشاشة الخ

وفضلته بهـذا البيت سكينة بنت الحسين وأثابته دون غـيره من الشـعراء(٤١) .

وقال الزبير : ليس من شعراء الحجاز من يتقـدم جميلا وعمر فى النسيب ، والناس لهما تبـع(٤٢) .

وقال الرشيد للمفضل : اذكر لى بيتا يحتاج الى مقارعة الأذهان فى اخراج خبئه ، ثم دعنا واياه ، فقال أتعرف بيتا أوله أعرابى فى شملته هب من نومته كأنما وفد على ركب جرى فى أجفانهم الوسن ، فظل يستنفرهم بمنجهية البدو ، وتعجرف الشدو ، وآخره رقيق غذى بماء العقيق ؟ قال : لا أعرفه ، قال : هو بيت جميل :

ألا أيهـا النوام ويحـكم هبوا

---

(٤٠) الاغانى ج ٨ ص ١٤٦ .
(٤١) العمدة لابن رشيق ط ١٩٢٥ ص ٩٧ .
(٤٢) الامالى ج ٢ ص ٧٤ .

ثم أدركه رقة الشوق فقال :

أسائلكم هل يقتل الرجل الحب(٤٣)

ويعد جميل أستاذا فى زمانه ، ولمن بعده كما يبدو ذلك واضحا من أن الشعراء والفحول كان بعضهم يقتبس من شعره سرقة لبعض الأبيات ، ويدخلها فى شعره روى أبو الفرج الأصفهانى أن كثيرا أنشد الفرزدق :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لى ليلى بكل سبيل

فقال له : هذا سرقة من جميل ، فقال له كثير أنشدنى قولك :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا(٤٤) الخ

وقد نقلوا عن كثير أنه ذكر يوما أنه أمات ألف قافية لجميل لينتحلها لنفسه ، وهذه الرواية وان كانت فيها مبالغة فانها تدل على أن كثيرا كان يفخر بشعر جميل أكثر من فخره بشعره هو ، وذلك يشهد له بالتقدم وعلو المنزلة فى الأدب .

وما قدمناه دليل واضح على تقدير النقاد ، والأدباء لجميل ، وشعره ، بحيث أصبح محط أنظارهم ، ومناط عنايتهم ، والجميع متفق على أنه امام العذريين غير منازع .

---

(٤٣) الشعر والشعراء ط ١٣٢٢هـ ج ١ ص ١٠٠ ، ٣٠١

(٤٤) الاغانى ج ٧ ص ٧٣ ط. دار الكتب .

جميل والنقـــاد المحـــدثون

والنقاد المحدثون من المعـــاصرين قـــد نظروا فى أشـــعاره ، فوجدوها صورة حيـــة تنطق بما كان عليـــه من صبابة صادقة ، وحب غلاب ، ثم أدركوا من ثنايا شعره عبقريته الشعرية ، ومكانته الأدبيـــة التى يليق به أن يحتلها ، وشعره جيـــد رائع يعـــد فى مراتب شعر الفحول من الشعراء •

يقول الأستاذ جورجى زيدان : (ان جميلا امام المحبين ، وشعره يعتبر صورة صادقة ، عذبة قوية رائعة للأدب العربى)(٤٥) •

ويعترف الأستاذ العقاد بمكانة مرموقة ، ومنزلة شاعرية فـــذة تكونت له نتيجة صـــدق صبابته ، والتهاب عاطفته(٤٦) •

ويقول الأستاذ كارلو نالينو : جميل هو المقدم على سائر العذريين من أهل البـــادية(٤٧) •

ويقرر هـــذا الرأى الدكتور بدوى طبانه ويقول : ان لجميـــل وقيس وكثير روائع من الشعر الجيد(٤٨) •

ويقرر هـــذا الرأى الأستاذ عبد الله أنيس أيضا(٤٩) •

وكل هـــذه الشهادات التى ما جاءت الا نتيجة البحث والتمحيص تدل على قوة الشاعر ، وصدارته ، فيقف فى مصاف فحـــول الشعراء بحق ، ولاشك أن شعره صورة أدبية وأخلاقية نرى فيها السمو والأدب العالى السهل الممتنع •

---

(٤٥) تاريخ آداب اللغة العربية ط ١٩٥٧ ص ٣٢٢ •
(٤٦) انظر كتابه (جميل بثينة) •
(٤٧) تاريخ الآداب العربية ط ١٩٥٤ ص ١٢٠ •
(٤٨) انظر كتابه (قدامة بن جعفر والنقد الادبى) •
(٤٩) الحب والغزل ص ٣٠ •

جميل وأثره فى الأدب العربى والعالمى

بعد هذه الجولات التى صاحبنا فيها هذا الشاعر الذى يصور احساس الحب الطهور ، والصفاء الروحى ، وبعد نظراتنا الأدبية حوله نود أن نبين ما كان لهذا الشاعر من أثر فى الأدب لا أقول فى الأدب العربى وحده ، بل اننى أقول فى الأدب العالمى أيضا .

ومما لا شك فيه أن جميلا هو امام العذريين ، وللغزل العذرى تأثير فى نشأة التصوف الاسلامى فى بلادنا الذى يسمونه « الحب الالهى » .

يقول ابن خلكان : من المشهور أن أهل التصوف بعد القرن الخامس أحبوا قصة المجنون وليلى لما رأوا فيها من أسنى الكناية عن أسرار النفس البشرية ، ومن الرمز الى اشتياق النفس الخالية عن الأهواء الدنية الى الرجوع الى الله والاقتران بذاته(٥٠) .

وقارن بين هذه الأبيات بين الغزل العذرى والحب الالهى يقول قيس :

فان يحجبوها أو يحل دون وصلها
مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يحجبوا عينى من دائم البكا
ولن يذهبوا ما قد يجن ضميرى

ويقول ابن الفارض الصوفى :

ذابت الروح اشتياقا فهى بعد نفاد الدمع أجرى عبرتى

---

(٥٠) وفيات الاعيان ص ٣٢٩ ط مصر .

واذا أولـت تولـت مهجـتى
أو تجلت صارت الألبـاب فى
دار خلد لم يـدر فى خـلدى
انه من ينـأ عنهـا يلق غى

ويذكر الدكتور محمد غنيمى هلال : ان أدبنا العاطفى قد أثر فى الآداب العالمية الغربية ، والشرقية ويقول : ان ذلك ظهـر فى شـعر الترو بادور ، وفى الغناء ، وقصص الحب ، والفروسية ، فى العصور الوسطى وعصر النهضة(٥١) •

ويقول الأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى (يكاد الأدب العربى يكون أسبق آداب العالم الى تصوير الحب العـذرى ، والتعبـير عن عاطفته ، ويقر النقاد الأوربيون بأن عاطفة الحب لا وجـود لهـا فى الشعر اليونانى القـديم بأن لم تتفتح أزاهيرها الا فى مفتتح عصر النهضـة ولم تتفتح بواكيرها الا بعـد أن اتصلت أوربا بالشرق اتصالا أدبيـا واجتماعيا(٥٢) •

ويعتـرف المستشرق لوى ماسينون ، والمستشرق أندريه موروا عضوا الأكاديمية الفرنسية بذلك فيقول الأول فى (ابن داود) : انه كان سلفا لازجال الأندلسى ابن قزمان القرطبى المتوفى سنة ٥٥٥هـ ، وتغنى قبله بالحب العذرى ، وكتب فيـه كتاب الزهرة ، وابن قزمان هـذا هو الذى أثرت موشحاته التى تغنى فيهـا بالحـب العفيف فى شعراء جنوب اللوار والقاليين والقالرطيين والبروفنسين والايطاليين •

والأستاذ آندريه موروا يتحدث عن نشأة الحب الرومانسى فيقول:

---

(٥١) انظر كتابه « الحياة العاطفية بين الغدرية والصوفية » المقدمة•
(٥٢) انظر كتابه « الحب العذرى » المقدمة •

انه لم تبدأ نشأته الا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين أيام التروبادور ، والتروفيه حيث تلاحظ فى الأوساط الشعرية ومن ثم فى قصص الفروسية شيئا بشيرا أن يكون عاطفة مركبة يسميها باسكال بانفعالات الحب ، وهو يعزو نشأة الحب الرومانسى الى أمرين : المسيحية بما وصفت من قيود خلقية ، وما امتزجت به من تيارات أخرى وردت الى أوربا عن طريق جنوب فرنسا ، وهذه التيارات هى شعر عربى ورد عن العرب •

ومعنى ذلك كله أن الغزل العذرى أول ما عرف عرف فى الأدب العربى ، وقد ذكرت كيف أقام جميل تلك المدرسة العذرية العربية التى شع نورها فى جميع الأنحاء ، وكشفت النقاب عن كل ما يتعلق بشخصيته ، وقصته ، وأثبت ذلك التراث العربى الأصيل من تفكيره الخالص وأنه أسلوب الحكيم المفكر فيلسوف الغزل العذرى •

ومن يتأمل تلك الفصول السابقة يعرف الأسس والدعائم التى جعلت منه شاعرا لا يعرف الا الصدق والايمان الراسخ ، بكل ما فى الوجود ، وما يوحى اليه من تطلع الى درجة تعلو عن المادة ، وتبحث عن عالم المعنويات الذى فيه غذاء الأرواح والأفئدة •

فالى من أراد أن يتأمل ويسمو بنفسه بأن ينظر الى ما كان لهذا الشاعر من سمات صافية وأخلاق لا تعرف الا تعلق الأرواح •

تعلق روحى روحها قبل خلقنا
ومن قبل ما كنا نطافا وفى المهد

وفى دراستنا رأينا شاعرا عبقريا سلك سبيلا هيأه له هذا اللون من الحب الذى أرسى دعائمه •

مراجـــع البحـــث

- الأدب العربى وتاريخه للأستاذ محمود مصطفى ط ١٩٣٧م مطبعة الحلبى •
- الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ط دار الكتب المصرية •
- الأمالى لأبى على القالى ط دار الكتب ١٩٢٦م •
- البيان والتبيين للجاحظ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر •
- تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ط دار الهلال ١٩٥٧م•
- تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية • كارلو نالينـــو ط ١٩٥٤م •
- تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث عشر • نجيب محمد ط ١٩٥٠م •
- جميل امام العذريين للأستاذ محمود مصطفى ط البابى الحلبى ١٣٥٦هـ ، ١٩٣٧م •
- جميل بثينـــة للأستاذ عباس العقاد ط ١٩٤٤م •
- جميل بن معمر د• جمال الدين الرمادى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م •
- حب ابن أبى ربيعة د• زكى مبارك ط ٣ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩١٩م •
- الحب العذرى نشأته وتطوره للأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى ط دار الكتاب العربى ١٩٤٧م •
- حديث الأربعاء د• طه حسين ط ١٩٣٧م •
- الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية د• محـــمد غنيمى هلال ط ١٩٦٠م •